الفصل الخامس

المقاومة والتنشئة الوطنية

- تقديم:

1 - التربية الوطنية المقاومة.

2 - أثر الأدب في التنشئة الوطنية.

3 - المقاومة والتنشئة الإعلامية.

4 - دور الفن في التنشئة الوطنية.

5 - المقاومة والتنشئة الدينية.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

المقاومة والتنشئة الوطنية

ـ تقديم:

ليس ثمة حضارة خلقية وأخرى متوحشة مرذولة، فالحضارة حضارة، وهي تتصف على مدى التاريخ الإنساني بعناصر البناء والتقدم والارتقاء للجنس البشري في الوقت الذي يتجلى فيها نزوع الخير والفضيلة... أما الثقافة المدنية مادية ومعنوية فإنها قد تتصف بالخير أو بالشر والتوحش تبعاً لاستخدامها البشري... ما يشي بأن نزوع الخير والشر إنما يكمن في الطبع البشري أو في الاكتساب النفسي والمعرفي الذي يصطبغ ـ أحياناً ـ بصبغة المصالح الزائفة والآنية من أجل شهوات نفسية وغرائز مادية. فإذا أسست الثقافة على اصطناع الخير وتقديمها للبشرية هدية كبرى استطاعت أن تصنع حضارة خلقية نبيلة تتعزز ارتقاء بالسلوك الإنساني الخير، وإذا أسست على مبدأ تغليب المصالح الذاتية والنفع الخاص للفرد أو الجماعة، أو الدولة أو الدول من دون أن تراعي القيم النبيلة ـ ومن دون أن تقيم وزناً إنسانياً للآخر ـ أو لمبادئ المصالح المشتركة ـ فإنها ستصبح ثقافة شريرة، ثقافة تعمل على إلغاء الآخر وجعله تابعاً للنفع الخاص... ما يعني أن صاحب النفع الخاص لا يرى إلا ذاته الاستعلائية، وكأنه خلق من طينة غير طينة البشر، ولاسيما إذا كان قد ملك قدرات خاصة. وهذا ما ينطبق على الدول حين تزعم أنها تملك ما لا يملكه غيرها من الدول، وبخاصة إذا كانت تحوز موارد متنوعة وشاملة سواء كانت هذه الموارد بشرية أم طبيعية واقتصادية وتقنية وإعلامية وعسكرية و... ولعل هذه الموارد والقدرات تخرجها عن الفطرة السليمة إلى طريق العنف والسير في الاعتداء والعبثية...

ولعل هذه التوطئة تدفعنا إلى القول: إن عبثية المصالح النفعية قد تجر أصحابها إلى ارتكاب المجازر الوحشية بحق الإنسانية، ويصبح من العسير على أي مؤسسة تُعنى بحقوق الإنسان وسعادته أن تدفع الأذى عن النفس الفردية والجمعية. ولعل هذا ما تحدث عنه ابن خلدون (808 هـ) عن وحشية الدول التي تهدم كل شكل من أشكال التقدم المدني أو الحضاري...

ولسنا نقول شيئاً جديداً حين نؤكد أن اضمحلال الوطن العربي وتفككه لم يكن حصيلة المرحلة الراهنة من التاريخ الحديث، فقد عاش مرحلة التخلف الطويل والعجز المريب؛ والجهل العجيب إبان الحكم العثماني الذي ران على الفكر والحياة ما يقارب (400) سنة حتى دخل الوطن العربي ـ خلالها ـ في حالة سكونية بعيدة عن حالة الوعي والتقدم.

وإذا كان الوطن العربي قد شهد في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حالة من اليقظة والنهوض الوطني والقومي فإنه سرعان ما وقع في قبضة الاستعمار الأوربي... الذي انتدب نفسه للهيمنة عليه وما خرج من الأرض العربية حتى أنجز مشروع تقسيمها وفقاً لسايكس ـــ بيكو(1916/5/15م)، فضلاً عن أنه زرع في قلبها الخنجر الصهيوني المتوحش إثر نكبة (1948م)... وظل الغرب الأوربي ثم الأمريكي حارساً للتقسيم والتفتيت وحامياً للدولة الصهيونية اللقيطة، بل عزز وجودها وقدراتها فأمدها بكل أنواع الأسلحة الفتاكة من طائرات وصواريخ وقنابل ودبابات و... ولعل هذا كله لا ينسينا أن مشروع تقسيم الوطن العربي مشروع ديني صهيوني كما يثبته قول دافيد بن غوريون: "إن إسرائيل الكبرى لن تقوم إلا على أنقاض أكثر من خمسين دولة عربية"[1].

ونرى أن ذلك كله فرض على الدولة الوطنية نمطاً من التربية التي تؤصل مفاهيم المواطنة، وترسيخ قيم التحرر الوطني وسيادة الوطن، مهما تكن قدرتها على إدارة مواردها التي ظلت مرتبطة بعجلة الغرب... ثم ظلت الحركة

---

[1] أمريكا العقلية المسلحة ص 226 – عبد الله محمد الناصر – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت – 2007م.

الديمقراطية حركة خجولة أمام الطموح في التحرر الاجتماعي، علماً أنه تحرر اجتماعي تأثر هو الآخر بالنظريات الغربية وعادات أهلها وقيمها ومنهجها... [1] ما أدى في الحالين إلى تخلف المشروع القومي النهضوي، على الرغم من وجود الحركات الفكرية التنويرية على اعتبار أن المجتمع العربي أخذ يبتعد عن القيم الدينية الصحيحة، وأن بعض فئات منه تمسكت بتقاليد بالية، ومذاهب ضيقة، وطوائف مريضة، فضلاً عن قوى اجتماعية عدة لم تنخرط في عملية التحرر الاجتماعي ذاته؛ ومثّلت عائقاً جدياً في وجه التقدم والنهوض.

وعلى الرغم من الصعوبات الكبرى في عملية التنمية الشاملة كان الوطن العربي يتحرك، لإنجاز المشروع الوطني والقومي رابطاً إياه بمفهوم الهوية العربية الواحدة؛ ومفهوم التحرر من الاستعمار ومبدأ تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. في الوقت الذي لم تأخذ مؤسسات المجتمع المدني مكانتها المرجوة في عملية التنمية المتوخاة منه[2]... فإذا كانت الديمقراطية مرتبطة بالتحرر الاجتماعي لإيجاد التطور المنشود فإن مؤسسات الدولة في أغلب البلاد العربية حملت على عاتقها مسؤولية تربية ثقافة المقاومة لصدّ العدوان الخارجي، وشاركتها في هذه المهمة الوطنية مؤسسات المجتمع المدني أو الأهلي وإن كانت تعمل بأسلوب ذاتي ومنفرد.

ولا غرو في أن الدولة حملت ـ منفردة ـ مهمة وطنية وقومية في مواجهة الاستعمار الخارجي، وبخاصة الاستعمار الغربي ثم الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الذي غدا أعظم أزمة يواجهها النظام الرسمي في كل دولة، إذا أهملنا أزمة الأحادية التي عانى منها هذا النظام في إلغاء التعددية السياسية ما أوقع الدولة الوطنية في الإحباط والارتباك أمام حل القضية الفلسطينية.

. وإذا كانت القضية الفلسطينية منذ نكبة (1948م) قد أضحت مركز المقاومة العربية، ومدار التكامل الأعظم على المستوى الوطني والقومي، ـ وكل موارد الأقطار مسخرة للمعركة والتحرر ـ فإن ما يؤسف له أننا أخذنا

---

[1] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين 15 وما بعدها.
[2] انظر المجتمع المدني: مفهوماً وإشكالية ـ 266.

نـرى نوعـاً مـن التقـدم في البنـاء والنهـوض الاجتمـاعي بينمـا نشـهد خسـارة في الأرض. لذا طفقنا نعاني من كثرة الوجوه الممسوخة التي تنطق بلسـان الغـرب، أو أمريكا وربما بلسان صهيوني.... ثم صارت الخيانة أو العمالة وجهة نظر... علماً أن الكيان الصهيوني المتوحش كان يخترع الحروب أو الاشتراك فيها ليمنـع المشـروع القـومي النهضـوي مـن التحقـق... ومـن أبـرز اعتداءاتـه (العـدوان الثلاثي على مصر 1956م) ومساندة الانفصال الأسود (1961/9/28م) الذي اعترفت به أنظمة عربية عدة بعد أن مولته، ووقوع نكسة حزيران (1967م) الذي سبب النكسة المشؤومة، وهي خسارة كبرى ـ من دون شك ـ ولا مثيل لها في التاريخ العربي إلا نكبة (1948م)... وهذا كله يضعنا وجهاً لوجه مع خيبات الأمة، والعمل على تجاوزها بإرادة صلبة وتربية وطنية مقاومة.

1 ـ التربية الوطنية المقاومة:

اتضح لنا مما تتقدم أن الإحباط والقلق، والخوف من المجهول صار ممثلاً لحياة كثير من أبناء الأمة العربية والإسلامية إذا لم نقل: إن العجز والضعف وسوء المعالجة أضحى أمثولة يتندر بها كثير من أبناء البشرية. فلا الدولة القومية تحققت؛ ولا آليات الوحدة حققت أي شكل من أشكال التضامن بين الدول العربية... بل إن الدولة القطرية تعرضت لإشكالات شتى وأزمات عدة هددت سيادتها ووحدتها، ولم تصمد قيادات عدد منها أمام هجوم مشاريع الدوائر الصهيو/أمريكية وفي طليعتها (مشروع الشرق الأوسط الجديد) أو المشروع الصهيوني الاستيطاني العنصري الذي اعتُمد في تحقيقه على آليات متنوعة. فالذراع الطويلة للجيش الصهيوني غدت مفخرة اعتزاز لكل صهيوني يمارس من خلالها عنصريته وحقده الذي دفعه إلى جرائم غير محدودة النتائج... ثم صارت الدولة الصهيونية اللقيطة مدعاة إعجاب لدى الغرب، لأنها تصدَّت لعشرين دولة عربية صورتها آلة التضليل السياسية والإعلامية للدوائر الصهيو/غربية دولاً ظالمة قاهرة لحقوق الإنسان؛ كما صوَّرت جيوشها بأنها جيوش متوحشة تريد إلقاء اليهود في البحر. وهكذا قلب الصهاينة وحلفاؤهم الجلاد إلى ضحية، وقلبوا الضحيّة إلى جلاد... ثم وقعت الدول العربية فريسة

سهلة للاعتداءات الصهيونية، ونشبت الأوهام في نفوس أبنائها وبخاصة بعد نكسة حزيران... ولم ينتشل النفس العربية من جراحاتها النازفة إلا ثقافة المقاومة التي تعززت في النفس العربية التي أنتجت فصائل مسلحة لتحرير الأرض المغتصبة... وراحت النفوس تتغذى بروح النهوض لاسترجاع الأرض السليبة؛ ووضعت البرامج التربوية التي تحقق تلك الغاية، من دون أن ننسى التربية العقائدية لبعض الجيوش العربية... ومن ثم اتخذت المقاومة أشكالاً شتى بالكلمة وبالسلاح كيفما كان الانتماء الفكري أو العقيدي، وسواء كانت مقاومة شعبية؛ أم اتخذت حرب استنزاف للدول، أو القيام بحرب منظمة لتحرير الأرض. وكانت المقاومة المسلحة قد أطلقت شرارتها الأولى في عام (1965م) سواء تمثلت بحرب العصابات، أم بحرب التحرير الشعبية، أم بحرب الاستنزاف على الجبهتين السورية والمصرية عام (1968 – 1969م)، أم بحرب (تشرين الأول/ أكتوبر 1973م). وإذا كانت اتفاقية (كامب ديفيد) التي وقعها الرئيس المصري أنور السادات مع الصهاينة عام (1979م) قد أجهضت المقاومة العربية المنظمة، وقتلت الحلم العربي بالتحرر القومي والتوحد، فإن المقاومة بالكلمة قد اتخذت أنماطاً متنوعة نشأت الأجيال عليها وتربت. وبناء عليه فقد ظهرت ثقافة جديدة تسمى ثقافة المقاومة في الفكر والسياسة والاجتماع والأدب والفن والدين؛ ثقافة تتبنى مفهوم المقاومة من أجل التحرر والحفاظ على الكرامة العربية، في الوقت الذي تحافظ فيه على الوجود الذي أخذ الكيان الصهيوني يهدده؛ وهو يقوم بالمجازر الدموية الجماعية في الأرض المحتلة؛ ويسجن الآلاف المؤلفة من المناضلين والأبرياء... ما يعني أن تربية المقاومة غدت واجباً وطنياً مشروعاً ولا مناص عنه من أجل الدفاع عن الذات والوطن والانتماء... ومن ثم تضافرت جهود المعلم والمربي والمثقف والأديب والفنان والفقيه والعالم لتحصين الروح الوطنية وتعزيز ثقافة المقاومة، والتسابق إلى الشهادة في سبيل الوطن بوصفها قيمة عليا تستوجبها الشرائع السماوية. ولذا ولد المقاوم العربي أرض جُبل دمه بترابها؛ وعاش في مجتمع قدَّس المحبة والتعاون والكرم والعطاء، والفداء؛ وأحب الفضيلة لذاتها، وكره الرذيلة لشرها ولما ترسيه في المجتمع من مآسٍ. وقد رأى كل حُرّ

شريف أن أعظم الرذائل سلباً لكرامته تتجسد في اغتصاب عدو ما للبيت والأرض؛ بما يورثها من هتك للشرف والعرض و... فالأفعال الإجرامية الشريرة والمدمرة أفعال قبيحة وعدوانية من دون جدال، وهي لا تحتاج إلى موادعة ومواربة، وإنما تحتاج إلى مواجهة وردع ومنع، ولا يجوز لأحد من أبناء الوطن أن يتخلف عن مقاومتها؛ أياً كان لونه أو جنسه أو عقيدته، أو مذهبه أو طائفته في الوطن الواحد، صغيراً أم كبيراً... ولن يتحقق هذا كله إلا بوساطة التربية الوطنية المقاومة؛ وجعلها ثقافة شعبية... ولابد من أن تصبح حماية الذات الوطنية واجباً مقدساً يفرض على كل مواطن، ما ينفي عن المقاومة صفة الارتباط بجهة ما؛ أو فئة ما... وهذا يثبت أن المقاومة الوطنية ليست عصبية هوجاء؛ ولا عنصرية شوهاء؛ ولا حماقة رعناء؛ إنها فعل إنساني نبيل استند إلى قيم المجتمع النبيلة، وشرعة القانون الإلهي والدولي... ولذا ارتقت المقاومة إلى مرتبة سامية ومقدسة؛ حين صارت قرينة للشهادة المقدسة في ظل قانون الدفاع عن الذات والوطن... أي إن ظاهرة الارتباط بين المقاومة والتنشئة الوطنية الطوعية والمكتسبة تتمسك بإرادة الفرد والجماعة؛ وهي إرادة تنمي مفهوم الانتماء الوطني والإخلاص له بمثل ما تقوي رابطة العقد الاجتماعي بين أبناء الأمة... وهكذا عاش المجتمع العربي في بعض الأقطار العربية والإسلامية حالة من المقاومة الشاملة على كل مستوى، من الطفل إلى المرأة إلى الشيخ، كلهم دخلوا في أتون مقاومة المحتل الصهيوني الغاصب لفلسطين، وهو نفسه من اعتدى على لبنان غير مرة. ولّما أخذت التنشئة الوطنية تعزز تبصير المجتمع العربي بالعدو الصهيوني كانت تفتح عيون أبنائه على مشاريع الدوائر الصهيو/أمريكية، وبخاصة حين أكدت الأحداث أن أوربا وأمريكا شركاء في العدوان على الأمة كلها. فأمريكا هي التي دفعت صدام حسين لإطلاق شرارة الحرب العراقية الإيرانية سنة (1980م) ووفَّرت لها الأسباب التي جعلتها تدوم ثماني سنوات أكلت الأخضر واليابس في دولتين مسلمتين وجارتين، فضلاً عن أنها أجَّجت التناقض بين الدول الإسلامية والعربية.. ثم لم يلبث التمزق العربي أن ازداد اتساعاً في غزو صدام حسين للكويت سنة (1989م)، وجعلت العالم يتحالف بقيادة جيشها لإخراج الجيش العراقي من الكويت، ثم

عُقد مؤتمر مدريد عام (1991م) واعداً العرب بإعادة الأرض مقابل السلام، فلا رجعت الأرض ولا تحقق السلام.. وإنما وصل العرب إلى اتفاقية أوسلو في (1993/9/13م) ثم اتفاقية وادي عَرَبة في [1] عام (1994م) ـ أيضاً ـ وما تحقق الأمان النفسي ولا الأمن السياسي؛ بل ظهرت أشكال من ثقافة الهزيمة والاستسلام والتحول في الآراء والأفكار والمواقف[2]. وكل ذلك خلق أوضاعاً مزرية للمجتمع العربي ما دعاه إلى الاستنكار والاستهجان تارة، وإلى الانتفاض في المظاهرات تارة أخرى.

ولمّا أنجزت التربية الوطنية مهمتها في تنشئة أطفال الحجارة الذين انتفضوا على القهر والظلم عام (1987م) ـ على الرغم من بؤس الرجال الذين ضعفوا ـ كان هناك شعب مقاوم يشعل انتفاضته الثانية نتيجة تدنيس شارون للمسجد الأقصى في (2000/9/28م)[3] ولكنها أُجهضت بخارطة الطريق...[4].

ولما كان ذلك كذلك كان الشعب العربي في العراق يخلق مقاومته الجبارة لإخراج المحتل الأمريكي من أرضه[5]، وكذلك كانت الروح الوطنية للشعب اللبناني تصنع المعجزات في مقاومة المحتل الصهيوني الذي انتهج العدوان الفتاك شريعة له لإذلال الروح الوطنية المقاومة عند العرب.

وعليه أصبحت التربية الوطنية المقاومة تستجيب للوجدان العاطفي والثقافي والديني والخلقي... وترتبط عضوياً بالسيادة والكرامة والحرية والتطور الموضوعي وترى أن ثقافة المقاومة أساس التسلح بالوعي الكبير لخصائص الذات الوطنية والقومية؛ خشية الوقوع في مطب الإلغاء والإقصاء بعد أن سادت مقولات الأمركة والتبعية لمشروع الشرق الأوسط الجديد؛ علماً أن الفضائيات ووسائل الإعلام والتقنية الأجنبية والعربية راحت تتبارى في غسل أدمغة الأطفال

---

[1] راجع ما تقدم 194.
[2] راجع ما تقدم 187 وما بعدها.
[3] راجع ما تقدم 159 و 199.
[4] انظر الجيل الثالث – نهج المقاومة – محي الدين الموسى – كيوان للطباعة والنشر – 2006م – ص 181 – 204.
[5] انظر كتابنا قضايا في الفكر السياسي والقومي 127 – 185 وراجع ما تقدم 193 و 196 – 197.

العرب وناشئتهم من كل أثر للمقاومة أو الممانعة. ولعل هذا الوضع غير السوي قد خلق أنماطاً من المثقفين والسياسيين المسلوبين في إرادتهم وعقولهم، ولا سيما أولئك الذين يسوغون للاحتلال بحكم القبول بالواقع، لأننا عاجزون عن تغييره، فضلاً عن أن هناك أدباء وكتاباً ومثقفين وسياسيين عزلوا أنفسهم وصمتوا عن الكلام، أو اتخذوا لأنفسهم طريق المهنة التي انخرطوا فيها؛ وتجنبوا الخوض في الحديث عن مقاومة الاحتلال، أو التصدي لكشف عملائه، فكانوا أشبه بالموتى في عالم الأحياء...

فالتربية الوطنية الفطرية والمكتسبة كونت المواطن المنتمي الذي عشق الشهادة ومجدَّ البطولة والإرادة والقوة وكره الضعف والخيانة... واعتز بالأصالة والانتماء وتقرير المصير حاضراً ومستقبلاً.

فثقافة التربية الوطنية المقاومة الحقيقية انشغلت بالتكامل بين المحلي والقومي والإنساني وبين الثقافي والعلمي والموضوعي مستفيدة من العقيدة الدينية الدافعة؛ لتخلق الإنسان المتوازن المثقف المنفتح على الأفراد في الداخل والخارج من دون أن يصاب بالانحراف والتشوهات؛ ومدركاً بالدرجة الأولى لدلالة المصطلحات والتفريق بينها؛ وعارفاً بالمفاهيم والمناهج؛ ومقدراً للقيم الأصيلة التي نشأ عليها ما يشي بخلق الأجيال التي تتصف بالصدق والاستقامة والكرم والشجاعة وحب الوطن وصدق الانتماء والدفاع عنه والالتزام بالقانون واحترام حقوق الآخرين ... ثم إن تربية ثقافة المحبة والتشارك، وتنمية الثقة بالذات والمحافظة على التراث والكنوز الأثرية والأوابد التاريخية عزَّزت دوافع التضحية والفداء... ولولا ذلك كله لفقد المرء معنى الوجود البهي. فالتربية الوطنية المقاومة قادرة على إيجاد علاقة وثيقة بين ما هو وطني وقومي من جهة وما هو إنساني من جهة أخرى، وبين ما هو جوهري وما هو عَرَضي وزائف، و... إنها تعنى بعناصر الإقناع وعرض الحقائق وتأسيس الإدراك بالحق والباطل وحقوق الإنسان. ولعل هذا كله ما اشتغلت به المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة (حزب الله) وحرصت على تربيته في الناشئة فحققت انتصار (2000/5/25م) وانتصار تموز (2006م) بعد حرب ضروس دامت (33) يوماً، بدأت بعدوان وحشي صهيوني مدعوم بكل الدفع الأمريكي يوم (2006/7/12م).

ولذلك كله نهض عدد من المربين والمثقفين العرب بتربية الارتباط بين الأرض والإنسان والارتفاع بدرجة المواطنة التي ترتب على الفرد واجبات مقدَّسة، والتحرر من النزعات الشخصية والأنانية... فالمواطنة عقد واع ومسؤول بين المواطن ووطنه[1] والتزام عقدي وأبدي لا يجوز العبث به.

وظهرت الحاجة إلى التربية الوطنية والانتماء الصادق في مواجهة آثار الأمركة وآثار العدوان الصهيوني في تبدل القيم لدى أجيال الأمة نتيجة الجرائم والمجازر التي يرتكبها في أماكن شتى ونتيجة الهيمنة على القرار الدولي... ولهذا تبين لعدد كبير من العاملين في حقل التربية الوطنية والقومية أن المقاومة قد أخذت تتراجع وتضعف طبيعة ووسيلة ووظيفة أمام تقدم ثقافة الأمركة وقوتها التقنية وزركشاتها الخادعة، وأمام المدّ الصهيوني الذي تجاوز كل حدّ ولا سيما حين وُضِعَتْ أنظمة التعليم كلها في الوطن العربي في مواجهة مشكلات جديدة وجب حلها[2]. وفي هذا المقام تمسكوا بثقافة المقاومة في التنشئة الوطنية التي تبدأ من المهد في الأسرة والحي والمدرسة والمجتمع والجامعة والمؤسسات الرسمية الثقافية والعلمية والزراعية والصناعية و... وهي تنشئة تتكامل بين الإنسان والأرض والوطن (الدولة) والأمة (الدولة القومية) والعروبة (الهوية) وبين مختلف وجوه القول والعلوم والحياة والنظريات الفكرية والسياسية، لا يستثنى أحد من ذلك، كل في موقعه، وكل له نصيبه ـ فالمقاومة حركة عفوية غريزية في الطبيعة والواقع الاجتماعي للحفاظ على الذات من الاعتداء أو العبودية[3].

وأيا ما يكن شأن الجهود التربوية التي يقوم بها بعض المعنيين الباحثين في هذا المجال فهي دون المرجو منها في عالم شديد التغير؛ فضلاً عن أنه لم يكن هناك متطلبات سياسية واقتصادية وتقنية تلبي حاجات المعلمين قبل المتعلمين إذ

---

(1) انظر قضايا في الفكر السياسي والقومي 27 – 41.

(2) انظر مثلاً كتاب (العرب وعصر المعلومات) ـ د. نبيل علي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد 84 ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ 1994م؛ وكتاب (تأملات في مستقبل التعليم العالي) محمد نوفل ـ مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ـ القاهرة ـ 1992م.

(3) راجع ما تقدم 29 وما بعدها.

لابد من تنمية ثقافية بالآخر، وإن كانت التربية الوطنية تعنى بغرس مجموعة من المعارف والقيم والمبادئ في نفوس الناشئة خاصة وكل مواطن عامة. فالتربية الوطنية تجسد الحس المشترك بالانتماء إلى الوطن واحترام أنظمته الثقافية والاجتماعية والدينية و... وتربط ذلك كله بمجموعة المعارف الكونية، ولا يوجد لدى كثير من العاملين في الحقل التربوي والثقافي والأدبي والفني والعلمي اتفاق ـ بل شبه اتفاق ـ في شأن القبول بالواقع الناتج عن الاحتلال الصهيوني أو الأمريكي للأرض العربية ونتائجه الكارثية على الوطن والأمة ، على اعتبار تبني عدد غير قليل منهم لكل مساقات الأمركة بحجة مجاراة العصر وإلا أصبحنا خارجه، وفي طليعة ذلك اعتماد لغة التفاوض والتطبيع مع العدو... فالمجتمع العربي لا يستطيع التخلص من حالة التخلف التي يعيش فيها ما دام منغلقاً على نفسه، إذ لابد من التمازج الثقافي الاقتصادي الاجتماعي بالعالم.... وستظل الحروب والمقاومة عائقاً من ذلك كله.

ومن يتأمل حال المجتمع العربي يجد أن هناك حالةَ تقبل عجيبة لكثير من التحولات الفكرية والوطنية لعدد من المفاهيم التي تغاير منظومة القيم الموروثة؛ والعزوف عن مفاهيم ثقافة المقاومة وعاداتها وأنماطها الحياتية... ثم انتشرت الثقافة الاستهلاكية السريعة، وثقافة المقاهي، فضلاً عن شيوع نزوع التطبيع، والترويج لمّا سمي بثقافة السلام التي تعني الاستسلام وفق ما عرضناه في الفصل الرابع[1]، ما يعني أن النظام العربي يمشي بأقدامه إلى حيث هي رغبات الكيان الصهيوني التي ستقضي على خصوصية بنيته الذاتية، وتشويه مفهوم الانتماء وفق ما نشأ عليه وأخلص له....

فتربية ثقافة المقاومة مرتبطة بالتربية الوطنية الشاملة التي ترتب على كل فرد أن يكون واعياً بممارسة حقوقه وواجباته؛ وتنمية حس المبادرة الوطنية نحو وطنه عاطفياً وفكرياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياًو... وهذا يفرض على المسؤولين إعادة الاعتبار إلى منظومة التربية الوطنية والقومية برمتها، وتقويم

---

[1] راجع ما تقدم 187 وما بعدها.

التجارب في ضوء مصلحة الوطن والأمة.

وإذا كان للتربية الوطنية المقاومة مثل هذه المكانة في تنشئة الروح النضالية؛ فإن للأدب أثراً واضحاً فيها؛ وهو حديثنا الآتي.

2 ـ أثر الأدب في التنشئة الوطنية المقاومة:

لم يختلف اثنان على أثر الأدب في التنشئة الوطنية، والقومية، إذ أصبح مسلماً لدى الصغار والكبار منذ القديم أن الأدب سخر لقضايا المجتمع والدفاع عنه. فهو ينتشل أبناءه من السجن داخل أوطانهم، فينفتحون على فضاء رحب، ويتجه بهم إلى ملكوت أرحب، وينمي فيهم روح التطلع والنهوض من الأشكال الفكرية المنحرفة أو الحركات السياسية المشكوك في انتمائها وهوياتها النضالية... فالأدب أياً كان جنسه شعراً أم قصة أم مسرحية أم رواية أم سيرة يبث في الناشئة والكبار على السواء لحظات من التنوير والتثوير لا يمكن لغيره أن يقوم بها. ويكفي أن تكون حركة الاستشراق الاستعماري قد حفلت بالتراث العربي لما له من قيمة كبرى، ولهذا طفقت تشوه كثيراً من معطياته الفكرية والدينية والخلقية [1]. فالكلمة الأدبية المقاومة تخذل عدواً جامحاً، وتقوي عزيمة مقاوم يتابع حركة نضاله الوطني والقومي من أجل التحرر والاستقلال وطلب العيش الكريم...

فالأدب يعد رسالة تربوية وفنية وثقافية فاعلة تنطلق من لحظة التوتر المدهشة... ولاسيما حين يرفّ على جناح الكلمة المحفزة، ويدفع عصافير الذهن إلى الارتياح عند سر الصدى الفكري الذي تنشده المقامات العليا لمقاومة أي تخاذل أو انحراف...

ثم إن الأدب في صيرورته الجمالية الخاصة لا يفترق عن قوانين التربية الوطنية التي تنمي علاقة المواطن بالوطن ورموزه ابتداء من التغنّي برمزية العَلَم والنشيد الوطني وانتهاء بتنمية قوانين المعرفة الشاملة والأنظمة والقوانين التي

---

[1] انظر ــ مثلاً ــ (الاستشراق: المعرفة – السلطة – الإنشاء) – إدوارد سعيد ترجمة كمال أبو ديب – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – 1991م.

ترسي التفاعل والتكامل بين أفراد المجتمع؛ أي أنه يجمع بين الفن والفكر، كونه يستند إلى التراكم الثقافي الذي ينشأ في مجتمع ما، ويحاول أن يصوغه صياغة موازية يمتزج فيها الوجدان بالعقل، ما يعني لنا أن الأدب واحد من أهم المنجزات الفكرية والفنية التي تتقاطع رموزه وصوره مع روح الأمة وتعبر عن نهوضها وخصائصها، ولا سيما ما يتصل بقيمها الخلقية والنضالية، وبما تملكه من دلالات ومؤثرات في الوظائف والأهداف...

ولعل قراءة النماذج الأدبية لأي عصر من العصور التاريخية تبين أن تربية الناشئة تربية وطنية قومية تحتاج أيما احتياج إلى تلك النماذج بغية التخلص من عوامل التشكيك في هوية الانتماء، أو بغية التحرر من القلق والانصهار في ثقافة الآخر؛ وأدبه..

فالأدب ـ أي أدب ـ إنما يصاغ من الوظيفة والهدف اللذين بني عليهما، وهما مرتبطان بالوعي النقدي لعامل الانتماء والمرجعية الفكرية والخلقية التي أبدعها مجتمع ما.. ومن هنا يصبح النص في العمل الأدبي مادة تعليمية نضالية يفيد منها أبناء المجتمع بمثل ما يفيد منها الأديب اللاحق من السابق، والناقد اللاحق من سابقيه بغية الارتقاء في تربية الأجيال.

فالأدب في طبيعته ووظيفته الوطنية والقومية يُعدُّ ثقافة مشتركة لكل من يقبل عليه ويحفظه ويحاكيه. ولّما كانت اللغة العربية وسيلة المعنى والصورة فإن معطيات التوحد في هوية اللغة أساس الالتقاء والتداول المعرفي والفني. وعليه فإن التنشئة الوطنية للتربية المقاومة تحتاج إلى تأسيس الوعي بالأدب العربي ولغته الواحدة، ورفض التبعية لأدب الآخر أو تفضيله... فالأدب أو اللغة أو النقد نتاج إبداعي يعبر ـ فيما يعبر عنه ـ عن حالات وطنية مبتكرة بامتياز، ما يجعلها تخلق مقاومة إيجابية بدلاً من أن يرتكس المرء إلى النزوع السلبي والانكفاء على الذات، والنكوص إلى الوراء... ولو ابتلي الإبداع ـ أياً كان نوعه ـ بمثل هذه الصفات لأوقع المجتمع بأزمات عده وعرّضته لأخطار شتى... ما يؤكد أن معركة ثقافة المقاومة ليس لها ساحة محددة، فهي تشمل المكان والزمان والثقافة والأدب والسياسة والفن... وهذا يفرض علينا الإشارة إلى ما قام به الأدب العربي القديم من تحفيز النفوس في ساحات المعارك، فكان الفارس ينشد الشعر قبل أن يخوض معركته، أو أن الأديب يحمس قومه على

التصدي للغزاة المحتلين كما ورد على لسان أبي أُذينة اللخمي يحرض فيها الأسود اللخمي على أعدائه ومنها[1]:

وأنصف الناس في كل المواطن من سقى المعادين بالكأس الذي شربا

وليس يظلمهم من راح يضربهم بحدّ سيف به من قبلهم ضربا

وفي هذا الصدد طالعتنا نصوص أدبية كثيرة تحث العرب والمسلمين على القتال ضد الفرنجة كما نجده عند ابن النبيه المصري يحرض الملك العزيز على القتال ومما قاله[2]:

يا حارس الدين لما نام حارسه وناظماً شمله من بعد تبديد

جهّز جيوشك إن الثغر قد عبثت به الفرنج فأضحى غير منضود

ولعل هذا كله يدفعنا إلى التذكير بما يحاك للتخلص من الأدب العربي ولغته الفصحى.. وقد سعى عدد من أعداء اللغة العربية وأدبها غير مرة إلى زرع التشكيك في قدرتهما على أداء رسالتهما في الحياة... ولكنهم أخفقوا، وكأن قول المتنبي قد صدق فيهم حين توجه إلى سيف الدولة قائلاً:[3]

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل

فالشعر مثَّل تراب الأرض الطاهر، وحمل سر الانتفاضة الطاهرة التي حاولت قلع الظلم والقهر من الأرض العربية قديماً وحديثاً، ونبه على رسم أبعاد المقاومة كما نجده في فلسطين، وعلى لسان محمود درويش في قصيدة (الأرض) ومنها:[4].

أنا الأرض

والأرض أنت

---

[1] انظر نهاية الأرب ـ للنويري ـ 320/15.

[2] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون– 48 –تحرير ومراجعة د. صالح أبو إصبع وزميليه – جامعة فيلادلفيا – الأردن – 2006م.

[3] ديوان أبي الطيب المتنبي 157/3 – شرح العكبري – دار المعرفة – بيروت – د/ت.

[4] ديوان محمود درويش 316 – 317 والشعر ونهضة الشعور ـ ص 182 وانظر ما كتبناه في هذا الاتجاه عن محمود درويش في كتابنا (قضايا ومبدعون 191 – 200).

خديجةُ، لا تغلقي الباب
لا تدخلي في الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم من حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل

فمحمود درويش لم يكن متأثراً بما هو طارئ على أرض فلسطين وفق المنحى الجمالي وإنما كان منحازاً إلى قضية أبناء شعبه الذين طردهم المحتل الصهيوني من أرضهم.. ما جعله يتحول إلى الأرض وما تنبته في محاورة وطنية لاهبة تنجب من خلال أزهار البنفسج ولادة الحرية والكرامة... وهو يعتقد أعظم الاعتقاد بالقدرات المخزونة لتلك الأرض الحبلى بالإبداع النضالي للطبيعة...

إن مثل هذه الولادة للتمسك بالأرض والدفاع عنها هي التي تربي النشء على أن مقاومة المحتل الغاصب ضرورة وجود، وضرورة مصير، وليست مجرد هواية يؤديها الأحرار والشرفاء في وقت الفراغ والراحة. إن الشعر المقاوم يهذب النفس وينير طريقها إلى المستقبل المنشود، ويكشف لها الخونة والمنافقين الذين يزعمون العمل على المقاومة والتحرير وهم أبعد الناس عن ذلك، كما هو حال كثير من دول العرب التي ادعت تحرير الشعوب، كما عَبّر عنه خير الدين الزركلي:[1]

جهروا بتحرير الشعوب وأثقلت متن الشعوب سلاسل وقيود

وكما صوره الجواهري ليثير الناشئة على الاستعمار، ويحفز النفس العربية على الخلاص من القيد؛ ومما قاله:[2]

سلام على مثقل بالحديد ويشمخ كالقائد الظافر

كأن القيود على معصميه مفاتيح مستقبل زاهر

---

[1] ديوان الزركلي 117 – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط1- 1980م.
[2] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون 53.

إن ينبوع الإبداع والإلهام لدى الأديب ليس حدثاً عابراً أو تعبيراً طارئاً عن حالة معينة وآنية، إنه وحي نضالي ينضج على جمر الرؤى، وحدة العواطف وهو يحاول ركوب الصورة المبدعة التي تتفيأ في ظلال البحث عن الحرية كما نراه في قصيدة سميح القاسم (ليلى العدنية) ومنها:[1].

إلى واحد من فدائيي الشمس في جنوبنا المقاتل...
واحد... من الرجال الذين أرادوا الحرية، فاخترقوا إليها الموت!!
إلى الجندي الذي صنع من عظام أطفاله القتلى سكاكين ثأر، ومناجل حصاد... ومن حجارة بيته المنسوف صنع تماثيل أطفال... إلى القوي مكاوي.. أخاً ومعلماً.

(1)
شاءها الله شهيَّة!!
شاءها الله... فكانت كبلادي العربية
....
(2)
كبرت ليلى على سحر الليالي البدوية
....
كبرت ليلى
وفي يوم من الأيام ناداها أبوها:
لبن الناقة في القصعة والتمر كثير
وأنا ماض إلى الشطآن، ماضٍ يا عجيبهْ
ثم شدَّ البندقيهَ
ومضى يدفع عن ليلى الذئاب الأجنبيه
راح مرزوق وخَلَّى في يد الرحمن بيته

---

[1] الشعر ونهضة الشعور 202 وما بعدها.

obeikandi.com

راح... فالشطآن غصت بذئاب وعقاربْ
من مغيرين أجانبْ
...
ومضى يوم ... ويومان... وما عاد المحاربْ
كانت الشطآن ملأى بذئاب وعقاربْ
....
(3)
وقضت ليلى إلى الحي... وصاحت:
يا لثأر الفارس المذبوح بالأيدي الغريبه
يا لثارات العروبهْ
يا لثارات العروبهْ

فالقصيدة طويلة تتألف من أحد عشر مقطعاً اخترنا منها أجزاء من مقاطع تتحدث عن حكاية احتلال فلسطين المحتلة واغتصاب الأرض والعرض؛ وقتل أصحابها الحقيقيين... فالشاعر لم يكن يبغي استعراض مهارته الشعرية، وإنما كان يستوفي قصة الظلم والقهر الذي مارسه الاستعمار البريطاني ثم الصهيوني على أبناء فلسطين المحتلة... كان يوظف الحدث الفكري والتاريخي والاجتماعي والسياسي والإنساني في موقف وطني نضالي يربي التمرد في النفس الإنسانية؛ في الوقت الذي يصور الآلام النفسية القاتلة التي حاقت بأبناء فلسطين... فالقصيدة تعبر عن عالم ممزق بالهم والألم ولا خلاص منه إلا بطرد كابوس الاحتلال...

ذلك هو جزء من دور الأدب في تربية الناشئة على النضال التحرري في كل أرض محتلة ما يعني أن المنهاج التربوي والعلمي يعدُّ ذا أهمية كبرى في تعزيز قيم الانتماء والمقاومة. فالتربية المقاومة التي يؤسسها الأدب في أي مؤسسة تربوية وعلمية ـ إذا جرت مجرى الحياة الكريمة والفطرة السليمة، والتزمت بالقيم والمبادئ الوطنية والإنسانية ـ يمكنه أن يفتح فضاء حراً ومفتوحاً أمام الفكر الوطني الحر والسليم، وأن يكسب الإنسان قدرة على الفعل والتأثير

obeikandl.com

والتغيير، فالمقاومة في الأدب أعظم تأثيراً في نفس المتلقي من أي شكل فني ونقدي آخر، ما يفرض علينا أن نحفّظ الناشئة القصائد التي تعلي مرتبة الانتماء إلى الهوية والأرض[1]، والقيم الخلقية التي ترسي الفعل الخيّر في النفوس، فلا يجوز للوطن أن يظل جريحاً، ولا يجوز للكلمة أن تختنق في الحلق، فسر الوطن في النفس كسر الروح في الجسد كما عبر عنه عبد الرحيم محمود، ومنه:[2]

تلك أوطاني وهذا رسمها ... في سويداء فؤاد محتضر

فكرة قد خالطت كل الفكر ... صورة مازجت كل الصور

هي في دنياي سر مثلما ... قد غدا الله سراً في السور

ونرى أن من أهم وسائل تربية ثقافة المقاومة ما يقوم به الكتّاب والأدباء والرسامون والفنانون الذين يملكون ناصية الإبداع، وتشكيل الوجدان الجمعي حين تجيء أعمالهم نابضة بالوجدان الوطني والقومي العالي؛ وهم يرسمون ملامح الرجولة والمروءة، ليحققوا معاني السمو في الانتماء. ولهذا فقد تداخلت صورة الوطن بوهج الشجاعة والعطاء والنداء حين طفقوا يبثون روح الوعي بحقيقة ما يجري من أحداث تحيط بهم وبأوطانهم على جذوة الزمن المتقد بالحكمة، لينتشلوا النفوس من مصائبها التي ألمت بها على مذبح الزمن الغربي ـ الأمريكي ـ الصهيوني. ولا شيء أدلّ عليه مما عبر عنه الشاعر سليمان العيسى في قوله الذي يتغنى فيه بمجد انتصار تشرين:[3]

أطفال تشرين يا وعداً أخبئه ... للمعجزات لعرس العرس للقبل

يا قطرة الشرف الباقي بجبهتنا ... لن تركعي أنت يا أنشودة الأمل

فالأبطال في تشرين قدموا وجهاً جديداً للزمن العربي الرديء الذي رانَ

---

[1] رصدنا عدداً غير قليل من القصائد الشعرية في كتابينا (ملامح في الأدب المقاوم 104 ـ 150 وتجليات النكبة والمقاومة في الفكر والأدب 95 ـ 111).

[2] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون 54.

[3] الأعمال الشعرية.

على كاهل الأمة العربية ست سنوات عجاف من هزيمة حزيران، وكان (موشي دايان) قد راهن على استمرار حالة الإحباط واليأس في الأمة مُدَّة خمسين عاماً أخرى إذ قال: "لن يستفيق العرب من الهزيمة قبل خمسين عاماً"، لكنه خسئ وخاب أمله وأمل كل من راهن على ضعف الأمة وعجزها فقد أعطى نصر تشرين/ أكتوبر التاريخ العربي وجهه المشرق، كما عبر عنه نزار قباني[1] في قصيدته (ترصيع على سيف دمشقي) حين خاطب حبيبته دمشق قائلاً:[2]

جاء تشرين إن وجهك أحلى ... بكثير... ما سره تشرين

كتب الله أن تكوني دمشقاً ... بك يبدا وينتهي التكوين

هزم الروم بعد سبع عجاف ... وتعافى وجداننا المطعون

وطني يا قصيدة النار والورد ... تغنت بما صنعت العصور

فتضحيات الأبطال هي التي رفعت القتامة السوداء عن وجه الأمة العربية التي تعرضت للقتل والإهانة والتهجير، والتمزيق... وهي التي ستخلق في الأجيال المبادرة إلى إعادة اللحمة إلى التضامن العربي الذي كان السبب الأهم وراء نصر تشرين.

لذا؛ فالشاعر على الدوام يجب أن يكون شاهد عصره في يقظة وجدانه المعبر عن ضمير أمته والحارس لها... فالأدب والفن يفعلان بالنفس مالا يفعله أي سلاحٍ آخر في معركة الحياة والبقاء، في الوقت الذي يعمق صلة الأحفاد بالأجداد، حينما يتصل النصر بالنصر من حطين إلى تشرين.

فالقراءة النصية الفكرية لمثل تلك الأشعار تشكل الهاجس الأكبر في تربية الأجيال على عقيدة حب الوطن والأمة والدفاع عنهما تجاه الغزاة والطامعين بهما.

---

[1] يعد نزار قباني واحداً من الشعراء الذين عالجوا القضايا الوطنية والقومية في شعره، انظر كتابنا (حراس الكلمة والموقف 150 – 170) وانظر فيه ما قلناه عن شفيق جبري 107 – 130.

[2] الأعمال الشعرية الكاملة.

ثم ينبغي ألا يغيب عن بالنا تبصير أطفالنا بأدب الآخر الصهيوني المعتدي وكل من يسانده كذباً وزوراً وبهتاناً، علماً أن الأدباء الصهاينة لم يجهدوا أنفسهم في تلفيق "الصفات القبيحة التي ألصقوها بشخصية العربي انطلاقاً من كرههم العنصري له..."[1] فالصهاينة يصرون على تربية ناشئتهم في إطار تأكيد الهجرة إلى فلسطين، بوصفها أرض الميعاد، ولهذا يقول (ناتان ألترمان)[2]

ارفعوا صهيون معجزة وراية
علماً فوق معسكر يهودا
وأنت، راكباً كنت أم راجلاً
تعال، من فضلك، وانضم للجماعة
معاً سنمضي، معاً من فضلك
دعنا إلى أرض الميعاد نعود
إلى أرض الحبيبة؛
مهد ميلادنا...
من منفاكم عودوا... عودوا،
للأرض، أرض الآباء

هكذا تكمن أهمية التربية المقاومة، في إنتاج ثقافة المقاومة لكل ما تنتجه آلة الفتك المهيمنة من آثار سلبية تنقض أصول النظم الاجتماعية للشعوب وتهدمها على رؤوس أبنائها... فالصهيونية بل الامبريالية الأمريكية المتوحشة الساعية إلى السيطرة على العالم وثرواته غدت انتهاكاً للحقوق الإنسانية واعتداء صريحاً على تربيته الأخلاقية، ما يجعل مقاومة أشكالها الغازية دفاعاً شرعياً مشروعاً عن الذات والثقافة والوجود. فالمقاومة ـ بهذا المحتوى ـ ضرورة وجودية لمفهوم حق الحياة ـ و هو حق اعترفت به القوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة كالمادة (51) التي شرّعت المقاومة بكل أشكالها على اعتبار

---

[1] ظاهرة الأدب الصهيوني – 194 – محمد توفيق الصواف – سلسلة كتاب الجيب الشهري – 9- اتحاد الكتاب العرب – دمشق- 2007م وانظر الاستشراق 304 – 308.
[2] ظاهرة الأدب الصهيوني – 129.

obeikandl.com

أنها ممارسة أخلاقية لاستلهام روح القيم والمبادئ، والانتماء والحفاظ على الهوية وخصائصها لئلا تذوب في الآخر القوي المستعمر الذي يريدها أن تصبح مستنسخة لثقافته ومبادئه إذا لم نقل: إنه يريدها تابعة له. فثقافة المقاومة التي تنهض بتربية الأجيال تعني الارتفاع في الانتماء والأداء، والإخلاص في العمل، والقدرة على العطاء ما يؤكد ربط التربية والتعليم بالمجتمع وبالتنمية المستمرة التي تحقق الجدوى والوطنية السياسية والثقافية والأخلاقية، أي إن ثقافة المقاومة ثقافة انتماء تصهر النفوس في الوطن والأمة وتعلي من مكانة الهوية الجمعية التي نشأنا عليها؛ ولا تسمح للأنانية الفردية أن تغزو المجتمعات، فكفانا ما قام به إبليس مع أبينا آدم، وإلا فإن العولمة ستمارس ما كان قد مارسه إبليس مع أول الخليقة ومن ثم مع أبنائه. فالفردية القطبية الأحادية للعولمة لا تنتج إلا ضعفاً وتقهقراً عند الشعوب والأمم باعتبار ما تؤول إليه من تبعية. وعليه فإن ثقافة المقاومة تحدث لنفسها أنماطها ومسوغاتها في تربية الأجيال من أجل الحفاظ على الوجود الحر الكريم في وطن سيد غير مغلوب على أمره والتخلص من الأنظمة التربوية العاجزة والمتخلفة.

ومن ثم فمثل تلك الأشعار ترفع درجة الوعي بالآخر المعتدي الذي لا يستطيع أن يختبئ وراء ما يملكه من تقنيات وفضائيات تسعى إلى غسل عقول الناس وتدمير ما نشأت عليه. وتصبح مكانة الشاعر في تربية النفس المقاومة مماثلة لمكانة أي معلّم أو مربٍّ أو مثقف أو كاتب أو سياسي ملتزم بثقافة المقاومة وثقافة الانتماء، على اعتبار أن هذه الثقافة تعلي كرامة الإنسان ولا تنال من قيمته. فثقافة المقاومة ثقافة تفضي إلى حال روحية، ورؤية موضوعية منتمية إلى الكون الإنساني الحضاري الذي يحقق سعادة الإنسان ويرتقي بها، ما يجعلها تنمي العلاقات بين الناس.

ويظل للإعلام المقاوم منزلته العظيمة في التنشئة الوطنية لما آلت إليه التقنيات الإعلامية وأدواتها من تطور عظيم؛ ولاسيما حين جعلت الكون قرية واحدة.

3 ـ المقاومة والتنشئة الإعلامية: [1]

حين نختار الكلام على التربية المقاومة في الثقافة والفكر والتربية والأدب، ثم نقدم للعالم كله رؤيتنا لبناء الإعلام العربي المقاوم وتطوير برامجه وبنيته في اتجاهات تخدم قضايا الأمة وتعالج شؤونها ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن ذلك يحتاج إلى إمكانات ومواهب وثقافة وطنية عالية وأدبيات ومنهج علمي مدروس لتعميق الوعي بالحق والهوية التي عززت على الدوام مفهوم الروح الإنسانية للانتماء الوطني والقومي. وثمة علاقة قوية ـ اليوم ـ بين التربية المقاومة وبين الإعلام الشامل الذي نجح ـ في أحيان كثيرة ـ في صناعة العقول والنفوس واللعب فيها كيفما يشاء. فكثير منا ـ مثلاً ـ يتحدث عن الإعلام المضلل أو التضليل الإعلامي بحياد مطلق، بما فيه الإعلام الشامل والوطني؛ وننسى أن مثل هذا الاتجاه في التحليل والتعليل قد لا يؤدي الغرض المناط به... ونرى أن اللجوء إلى التضليل الإعلامي سلاح فتاك ذو حدين إذا لم يحسن القائمون عليه استعماله بأسلوب منهجي مدروس[2]؛ وبيان وظائفه الوطنية والقومية الواضحة...

ومن ثم فالإعلام الوطني المقاوم لابد من أن يعنى على الدوام بمسألة الحقيقة الناصعة، وأن يكون ماهراً في استعمال المصطلحات والمفاهيم في المواقع المناسبة لها، فما أساء إلى القضايا الوطنية مثل ما أساء سوء استخدام المفاهيم؛ حتى غدت أداة جديدة لتشتيت الأفكار، إذا لم نقل: استشراء فوضى الرؤى، وما يتبعها من تحليلات وتفسيرات تحرف العقول عن جادة الحق. ولعل هذا ما تقع الأمم فيه إبان الأزمات... فإذا كان الإعلام الوطني ـ خاصة ـ مرآة المجتمع فإن الإعلام الوطني المقاوم صورة منطبقة على قضاياه وعلى الحقيقة في وقت واحد... فالحقيقة مهما كانت قاتلة؛ ومهما خالفت رغبات كثير من أبناء الأمة ومشاعرهم لابد من أن تظل نُصْب عيون القائمين

---

[1] انظر مجلة الفكر السياسي – اتحاد الكتاب العرب – العدد – 30 – 2007م – بحث الإعلام المقاوم – لعبد الله القصير.

[2] تعد المؤسسات الإعلامية الكبرى في العالم برامج خاصة توظفها لأهداف شتى، وليس هذا مكان التفصيل فيها؛ وتكفي الإشارة إلى ذلك...

على الإعلام الوطني المقاوم؛ لأن انكشاف الحقيقة في نهاية المطاف سيؤدي إلى مواقف غير محمودة العواقب على من زاغ بصره عنها وستزيد شحنة الاختلافات السابقة لها. ولا ننسى أن نثبت بأن ثورة الإعلام والمعلومات تعدُّ ـ اليوم ـ أهم ثورة معرفية في حياة البشرية، إذ أخذت المؤسسات الكبرى للإعلام تتنافس في الهيمنة على العقل البشري، في عالم غدا أشبه ـ (نتيجة الفضائيات الكثيرة) ـ بقرية صغيرة. ثم إن هناك فضائيات عدة تقوم بعمليات استعراضية لعدد من البرامج التي تغسل عقول الناشئة؛ أو أنها تأخذهم إلى مواقع قصيّة عن قضايا الوطن والأمة؛ وتدفعهم إلى تبني أفكار زائفة أو سطحية... وإذا كان الإعلام الوطني المقاوم مطالباً بتطوير تقنياته وأدواته؛ والانفتاح على الإعلام الإنساني فعليه ألا يسقط في عمليات الاستعراض، ولاسيما تلك التي تتناول القضايا الوطنية والقومية... ومما يؤسف له أن بعض الإعلام الوطني كان محمولاً على هذا الأسلوب ما جعل تأثيره لا يتجاوز الوقت الذي خصص له، ومن ثم أدّى إلى انفضاض الناس عنه. وقد يذكّرنا هذا الأسلوب بأن الدول العظمى، والشركات القوية أقامت محطات فضائية، وقنوات بث في كل مكان[1] لتمارس كل أشكال الإعلام المضلّل والمسخر لمصالحها على حساب الآخر... وإذا صار نظام الاتصالات متشابك الأبعاد والمراجع الفكرية والسياسية و... فإن هدفه لم يعد يقتصر على الإمتاع وتقديم المعارف لذاتها، وتوعية الإنسان بالوسط المحيط... وإذا كان له أهداف نفعية تبعاً لمصالح الأفراد والدول وإذا كانت هذه الأهداف ضارة بالآخر فإن الإعلام الذي يستند إلى الحق والخير والجمال ستكون له جاذبيته الخاصة وديمومة البقاء.

ولعل هذا يؤكد أن الإعلام يقوم بدور عظيم في توعية الأجيال وتنمية معارفها وترسيخ قيمها الإيجابية في الحرب والسلم... ولعل هذا يوقفنا عند اتباع سياسة حرب الأعصاب والحرب النفسية، لكسب أي معركة في كل زمان ومكان؛ وفي كل الحالات... ولذا قد ينتصر العدو بحرب باردة قذرة فيها من

---

[1] انظر ـ مثلاً ـ في مفهوم العولمة ـ 33 ـ وآراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة ـ مجلة شؤون عربية العدد 105 ـ بيروت.

الأكاذيب والأضاليل ما لايحصى... وفق مبدأ ميكيافيلي (الغاية تبرر الوسيلة).

وهذا ما يفعله الإعلام المعادي للكيان الصهيوني على الدوام في توجيه سمومه إلينا مستفيداً من الماكينة الفضائية العالمية التي وضعتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة في خدمة الكيان الصهيوني... فضلاً عن الإعلام العربي التابع، أو اللامبالي... فهذا الإعلام قد مارس غسل أدمغة الناشئة من كل تربية وطنية، وبث فيها الأفكار السامة حول مفاهيم الحوار والتطبيع...

ولذا بات الإعلام بكل صنوفه مادة الإعداد الأولى للناشئة في عالم أخذ الإعلام فيه يحتل مكانة كبرى في كل شأن من شؤون الحياة. ولمّا أخذ الإعلام يحتل مكانة ملحوظة في الأبحاث والدراسات نشأت مؤسسات إعلامية كبرى متخصصة في مجالات الإعلام. وقد جذبت إليها أبرز المفكرين والمحللين والشخصيات البارزة في صناعة الأبحاث المطلوبة؛ وهي توازي في تأثيرها ما تنطوي عليه الأخبار والإعلانات و... فالإعلام لم يعد حقلاً محايداً أو خاصاً ببعض الحقول الفنية، وإنما غدا حقلاً معرفياً وتربوياً واجتماعياً و... أي إنه أضحى مشكّلاً لمعارف المتلقي ومشاعره وآرائه وطموحاته و... ولذلك كله فالإعلام بدأ يختزل الحياة في اتجاهات يصنعها وفق ذوق أصحابه ومعاييرهم واتجاهاتهم، وأخذ يغير أنماط التفكير والعادات والقيم و... ولاسيما حين خَصَّ شريحة الناشئة بوقت طويل، وصفحات كثيرة من وسائله... لقد بات قادراً على تشكيل المتلقي وتوجيهه الوجهة التي يرغب فيها، وبخاصة حين يكثف كل إمكاناته لغرض من الأغراض.... ولا يختلف في الأمر التلفاز عن الإذاعة والصحف والشابكة (الانترنيت) والحاسوب (الكومبيوتر) و... ولكل مجاله ووسائله ووظائفه؛ ويظل للفضائيات المتلفزة أعظم الخطر في هذا الأمر[1]

وعلى الإعلام المقاوم أن يعنى بالرسالة التي يقدمها للناشئة على اعتبار القضية الوطنية والقومية التي يربيهم عليها... وكل قضية يتبناها الإعلام المقاوم لا تنفصل عن طريقة التنفيذ وقدرتها على الإقناع والتأثير في إطار

---

[1] انظر ـ مثلاً ـ سوسيولوجيا الاتصال الجماهيري ـ 254.

استراتيجية شاملة تنبثق من الانتماء والعقيدة والصدق والصبر ... ومن ثم تعميق الخبرة بالإعلام المعادي؛ ومواكبة كل حدث يقع في أي مكان من ساحة المعركة في حال الحرب أو السلم...

فالإعلام المقاوم الذي يستند إلى رؤية إيمانية وطنية نضالية يحتاج إلى الارتفاع عن الخطاب الإعلامي المباشر، وإن استخدم اللغة المكثفة والموجهة في بعض الأحيان...

ومن ثم فإن التنشئة الوطنية للإعلام المقاوم تُعنى بالمتلقي أياً كان سنه أو جنسه، وتستهدف وجدانه وعقله من أجل أن يكون في صميم معادلة مقاومة القهر والاستبداد والإحباط والفساد، والاحتلال والاغتصاب، ومقاومة انتهاك السيادة والشرف؛ ومواجهة ثقافة الهزيمة والعمالة والاستسلام والمساومة؛ وتغيير سياسة الإعلام المعادي بموضوعية وعلم وكشف زيفها وافتراءاتها و... وليست سياسة رد فعل عفوي.

إن فلسفة الإعلام المقاوم الدقيقة والمنهجية والعادلة هي التي تخلق بنية وطنية متماسكة تطرد الخوف والقلق، وتنجح في نقل القلق والخوف والاضطراب إلى صفوف العدو... ولعل هذا كله لا ينسينا أن المقاومة والتنشئة الإعلامية الوطنية ترتبط طرداً مع نسبة المشاهدة للتلفاز والقنوات الفضائية والحاسوب والشابكة، أو قراءة الصحف والدوريات والنشرات المتنوعة، وهي نسبة تتأثر بترتيب القضايا التي تعنى بها الناشئة، ونوعها وأولوياتها؛ ومدى قدرتها على الجذب والتأثير...

ويظل للفن بكل أنواعه وأشكاله علاقة وطيدة بالإعلام أو بالثقافة والتربية الوطنية المقاومة؛ ولاسيما في العمل الدرامي والغناء بوصفهما يرتبطان بالمجتمع قديماً وحديثاً... وكذا هي بقية ضروب الفن من دون أن نهمل الإشارة إلى الصورة البصرية للوحة الفنية رسماً ونحتاً... وللأغنية المقاومة التي تترك آثارها البعيدة في النفس.

4 ـ أثر الفن في التنشئة الوطنية المقاومة:

في البداية اسمحو لي أن أتساءل: من قال: إن النحلة الرشيقة تتعب من الطيران، أو تمل من لثم الزهور، أو ترفض أن تهدي جناها إلى صاحباتها؟ من قال: إن القصائد تئن من الحلم الجميل والرؤى المجنحة على أعتاب الخيال؟

ثم من قال: إن الطفولة تشتكي من دفء المحبة وزاد المعرفة المجبولة بالرضا والقبول وحسن الأداء والعطاء، إذ جبلت النفوس على حب من يحسن إليها؟

ومن زعم أن الأدب أو الفن بكل أنماطه لا يمكنه أن يهذب النفس البشرية، أو يرتقي بها إلى ما فيه صلاح الإنسان والوطن والأمة والإنسانية؟! وإذا كانت المقاومة حالة إنسانية، فإن الفن ـ أيضاً ـ حالة إنسانية تقرر موضوعاتها ووظائفها في إطار هوية خاصة تبرز مقاومة الأشكال الهابطة والمرذولة... من جهة؛ وتسهم مع غيرها في حبّ الوطن وقادته الذين ضحوا في سبيله من جهة أخرى.

ولعل تاريخ الفن أياً كان شكله إيقاعاً ونغماً وغناء ورسماً ونحتاً يثبت أن الشعوب استغلت ما تبتكره من إبداعات فنية[1]، لتمجيد الكرامة، والتغني بمعاني الحرية والسيادة... وحين تعززت مثل هذه الصور المقاومة الأخاذة كانت فنون عدة تعرّض بالظلم والقهر، وتندد باغتصاب الحق، والأرض، وكل ما ينال من الحقوق الإنسانية. فاللحظة الفنية المشرقة تنقل النفس من حالة التوحّد، والانفراد، والانغلاق إلى حالة السمو في البحث عن الحرية والثورة على الفساد، والاستبداد... ويستوي في هذا الشرق مع الغرب؛ فأوربا ـ مثلاً ـ اعتمدت الفن المقاوم بكل أشكاله لتنشئة أبنائها، وتعويدهم على رؤية الموضوع السياسي الملتزم في الفن ولا يسعنا إلا أن نعيد إلى الذهن تجليات المقاومة في لوحات رائد الرومانسية (أوجين دولاكروا ـ 1798 ـ 1863م)، وهي اللوحات التي أحدثت وعياً رفيعاً بالموضوع النضالي الوطني الفرنسي ضد الاحتلال الإنكليزي، وشكلت انطلاقة كبرى للأفكار والقيم المستمدة من الثقافة الأدبية ولاسيما لوحته (الحرية تقود الشعوب) التي أبدعها سنة

---

[1] انظر: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون – الباب الثاني: المقاومة في الفنون التشكيلية والغنائية – 299 – 395.

(1820م) والمستوحاة من شعر (بارون). وقد عبّرت عن أسطورة (جان دارك) في ملحمة المقاومة الفرنسية...

ثم إن التنشئة الوطنية تبدأ منذ لحظة الولادة، فيرضع الطفل نسمات حب الأسرة والمجتمع والوطن مع كل قطرة من لبن أمه وهي تهدهده بأغاني البطولة والتحميس للدفاع عنه بمثل ما تغذيه بحب الناس... ثم يأتي الفن والأدب في رياض الأطفال والمدارس والجامعات ليبث عطر الفداء للوطن والأهل استجابة للتربية الفطرية والمكتسبة الممزوجة بعشق التراب والقيم... فإذا كان الجنين يسمع ويختزن حركات أمه وهو في بطنها فإن الطفل الذي أخذ يحبو ويناغي قادر على استقبال عناصر التربية الوطنية بما فيها من التنشئة الأدبية والفنية، ولذلك قيل: العلم في الصغر كالنقش على الحجر.

فالطفل يمكنه أن يختزن الطبيعة والحياة في الأتراح والأفراح، ويستجيب للإيقاع والصوت والصورة والحركة يمكنه أن يرسم أو يقلد أي نموذج يشاهده أو يسمعه ما يجعله أكثر التصاقاً بالحياة، وأعظم تعلقاً بالوسط الذي ينشأ فيه... ولاسيما أن الطبيعة تعد الأم الأولى للإنسان، وكذا يكون الواقع الذي يعيش فيه الإنسان، ويتأثر به... وهو ما عرف باسم (الواقعية الاشتراكية). ويقع ذلك قريباً من (الرومانسية النضالية)، ما يدعونا إلى أن نفكر ملياً بكيفية الإفادة من الفن بكل أجناسه في تنشئة الطفل تنشئة وطنية قومية ترتبط بالوطن (مكان الولادة والنشأة)، وترفض الذل والخنوع والعبودية والقهر والعجز، وتعزز في نفسه الإرادة والحرية والثقة بالنفس؛ وتعمق في داخله حب التعاون والمشاركة؛ وتثيرها على التطلع والمبادرة. وقد أتيح للفنان المقاوم منذ القديم أن يسهم بتشكيل مادة جمالية ذات بعد نضالي مقاوم كما رأيناه في الرسومات التي عثر عليها في الكهوف، أو كما ظهرت الرسومات والمنحوتات التي تحدثت عن الأبطال أمثال صلاح الدين ويوسف العظمة...

ولا يقل عنه قيمة أثر الغناء والموسيقا الملتزمة بالإيقاع القوي الذي يلبي التطلعات النضالية بمثل ما يترك أثره في تهدئة انفعال النفس، وبث روح المشاركة والسكينة... فكل نمط من الفن يربي الذائقة النفسية والفكرية، بمثل ما يعزز حب الخير وكره الشر؛ ويرسخ قيم الانتماء والنضال والالتزام

بالقضايا الإنسانية الكبرى بعكس الفنون الهابطة كتلك الأغاني الهابطة التي تهوي بالمستوى الخلقي والوطني للطفل. وإذا كان منهج البحث يدعونا إلى التكثيف الشديد في الإشارة إلى تاريخ الفن المقاوم بكل صنوفه. فمن منا يغمض عينيه عن الغناء المقاوم لسيد درويش والشيخ إمام وجوليا بطرس وماري خليفة، وفرقة العاشقين وسيد مكاوي، وعبد الوهاب وأم كلثوم؛ وكلهم أدخلوا الحماسة الوطنية في نفوس الملايين الذين استمتعوا بما صدحت به حناجرهم... فالسيدة أم كلثوم في كل ما غنته من قصائد وطنية أسست العلاقة بين الناشئة والوطن مثل قصيدة (أحمد رامي) ومنها:

مصر التي في خاطري وفي فمي أحبُّها من كل روحي ودمي

وقد غنّت القصائد الوطنية لغير ما شاعر مثل قصيدة (أريد بندقية) للشاعر (نزار قباني). فالقصائد المغنّاة التي عرفت قديماً وحديثاً تترك تأثيراتها الكبرى في المتلقي وهي تأثيرات تختلف في درجاتها فيما لو كانت غير ذلك. فإذا كانت هذه القصائد المغنَّاة تعالج القضايا الوطنية وتتغنى بالقيم البطولية؛ والحفاظ على الوطن؛ وتمجيد أرضه فإن التأثير يصبح مركباً ومضاعفاً... فالأناشيد الوطنية والقومية التي تطلقها حناجر المطربين؛ وتزينها أنغام الملحنين تجعل كثيراً من الخَلْق يتسمّرون أمام كلماتها وإيقاعاتها، وقد دغدغت مشاعرهم وطافت في ذواكرهم لتعزز فيها قيماً جديدة خلقية ووطنية وفكرية؛ في الوقت الذي ترقى بالذوق العام...

ولعل هذا وأمثاله يثبت للقاصي والداني أن الفن أسلوب عظيم التأثير في تربية الناشئة للدفاع عن الذات والهوية، وطنياً وقومياً وإنسانياً، بوصفه نشاطاً إنسانياً ذا صفات خاصة. فالغناء المقاوم الفردي والجماعي، الشعبي والفصيح، قديماً وحديثاً وَحَّد المشاعر الوطنية والقومية على الساحة العربية، وصاغ مفاهيم الرفض والتمرد والثورة، وفتح نوافذ على الأمل والمستقبل... ومن ثم من منا ينسى أثر الأغنية الفلسطينية المقاومة ـ ولاسيما الشعبية ـ في زرع مفاهيم المقاومة في الوجدان الشعبي، وتعزيز معاني النضال كونها قيماً سياسية؟!! وهو ما تشتغل عليه المقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان.

وما يقال في الغناء والموسيقا يقال في الرسم والنحت؛ فالتنشئة الوطنية تفيد

من هذين الفنين في تشكيل لغة مشتركة بين الأطفال تتناول رسم الرموز الوطنية والقومية، وتقدم لهم النماذج البطولية في إطار جذاب ومثير... فمن منا ينسى أول نحات عربي يسمى (محمود مختار)؟ إنه أول من مزج بين حركة النضال المصري ضد المحتل البريطاني وبين النحت في تمثاله الشهير (نهضة مصر). ولعل لوحة حطين للفنان (توفيق طارق 1875 ـ 1940م) أول لوحة في سورية تعبر عن مرحلة النضال الوطني العربي في عهد صلاح الدين...

ولست بصدد تعقب الأسماء الشهيرة في الرسم والنحت والغناء ولكنني أريد أن أقول: لعل التربية المقاومة تتدرج في مظاهر الفن كله وهي تحتاج إلى تنمية مستمرة تبدأ بمرحلة الطفولة وتتعزز في مرحلة المراهقة التي تحتاج إلى ضبط عواطفها وتوجيهها لكي تجتمع مفاهيم المقاومة في اللاشعور في الوقت الذي تربي التعاطف مع الجماهير المناضلة والصابرة؛ وتعمق النداء الداخلي لمواصلة مقاومة الاحتلال... وإذا كانت بعض الأغاني أو الرسومات تعبر عن أشكال نضالية آنية فإنها تصبح الأنموذج البطولي الذي يختزن مضمون التصميم والإرادة للتخلص من المحتل والغاصب؛ لتنتصر إرادة الحياة والحرية. فأي فكرة وطنية تلح على المرء ولا تعاود التربية الإلحاح عليها فإنها سوف تغيب أو تتراجع أو تضمحل، ما يعني دوام تكرار الحديث عن الفن المقاوم ووضعه تحت البصر والبصيرة والسمع والفؤاد... إن التربية المقاومة بكل أشكالها تولد صغيرة ثم تنمو وتنضج في إطارها الوطني مع كل مرحلة عمرية، ما يعني أن الفن مسؤولية وطنية وقومية شديدة التأثير والخطورة. ويتطلب وعياً سياسياً عالياً؛ فإذا وسِّد الأمر إلى غير أهله كان وبالاً على التربية الوطنية، علماً أن القرن الحادي والعشرين قد حمل إلينا تجارب فنية إشكالية تستسلم لخيبات الأمل والهزيمة.

وهذا ينقلنا إلى المقاومة والتنشئة الدينية بما للدين من أثر عميق في المجتمع منذ أن يكون الإنسان طفلاً يرضع حليب أمه... ولعلها اليوم من أخطر ما يتعرض له الوطن العربي في زحمة التيارات الدينية السياسية التي تطورت أفكارها ومناهجها ووسائلها...

5 ـ المقاومة والتنشئة الدينية:

من حَقّ الشرفاء والأحرار في العالم أن يفخروا بما أنجزته أمتنا؛ في تاريخها الطويل حين حملت رسالة المحبة والهداية إلى أصقاع الدنيا، على حين لم يحمل لنا الآخر الغربي / غالباً/ ـ إلا الحرب والوعيد بالقتل والتدمير، والويل والثبور، وعظيم الأمور...وإن حمل لنا مدنية مادية متطورة جعلت الإنسان يلهث وراءها؛ دون أن يتعب... فإذا كانت التربية تعني العلم الذي يبني سلوك الإنسان ومعارفه فإن التراث الديني ـ لدينا ـ يتمتع بكثير من القيم والمبادئ والمعارف التي ترتقي بالإنسان على الصعيدين الروحي والمادي.فالتراث يقدّم لنا وللبشرية خدمات شتى على كثير من الصعد بما فيها التقنيات والعلوم والفضائيات والإعلام... وأياً ما تكن حقيقة البنية الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية للأمة العربية والإسلامية فإن التراث الديني المقاوم يحقق التوازن بين ما هو مدني وما هو روحي على نحو ما، وبخاصة حين يحافظ على الهوية، ويعزز الانتماء، ويدعو إلى صيغ التسامح والتعايش المشترك مع الأمم الأخرى... ولذا فإن نماذج التفكير تتطور في حضن الأسرة التي ميزت بنية المجتمع العربي والإسلامي، وقامت بوظائف بيولوجية وسلوكية ونفسية واجتماعية ومعرفية...

فالأسرة تشكل ذهنية الفرد ومواقفه الأولى من خلال تربية دينية خلقية تغذي الروح والعقل بحب الوطن وحمايته... ثم تتابع ذلك المدرسة والحي والمسجد والكنيسة والمؤسسات الثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية والدينية والإعلامية... فالمؤسسات الاجتماعية والتربوية والثقافية و... تعزز الاتجاهات القيمية التي تحرس المجتمع والأمة، وتحقق التكامل بين مكوناتهما، في إطار استراتيجية الدولة الوطنية التي يرسيها المعنيون بالقرار المركزي سياسياً وتربوياً وأخلاقياً وفكرياً وعاطفياً و... وهو التكامل نفسه الذي يحصل بين الأقطار العربية – على نحو ما – بين المسؤولين عن القرارات التي يتخذونها من دون أن يطغى اتجاه على آخر أياً كان انتماء صاحبه.

وتبقى العلاقة بين الحضور الخلاَّق للفكر والثقافة والتربية الدينية من جهة، وبين المواطن إذا تعرض الوطن أو الأمة للاعتداء الخارجي من جهة

أخرى، علاقة خاصة ومتميزة تهدف إلى مواجهة الخطر ومقاومته بكل الوسائل والسبل. وهي مقاومة يتربى عليها المواطن للحفاظ على وجوده وحريته وكرامته؛ فالجسم يقاوم الأمراض ذاتياً وطبيعياً، ولا سيما أن التنشئة الدينية تتعرض اليوم لتزييف عظيم على مستويات عدة، وصُعُد كثيرة، حين دخلت في انزياحات شتى من أبرزها ما يتعلق بالتمذهب والطائفية، والإسلام السياسي والتطرف...

ومن هنا فالمقاومة الوطنية والقومية في ديار العرب والإسلام تسعى جادة إلى إنتاج ثقافة جديدة تجاه كل ما يخطط للمنطقة من قهر وظلم وقتل وتدمير واحتلال ونشر التطرف؛ وظواهر التكفير.. ما يفرض على التربية الوطنية الدينية أن تقوم بمهمة جليلة في تربية الإنسان العربي وقيادته إلى شكل راقٍ من الانتماء الأصيل للوطن والأمة، والتضحية في سبيل قضاياهما، دون أن تتخلى عن النزوع الخلقي والإنساني... لا بد من أن تكون تربية تطهر النفس من القهر والظلم، وتستجيب لكل فعل جميل وخَلاَّق، وتبتعد عن كل سلوك قبيح ومؤذٍ... تربية تستند إلى الأخذ والعطاء، والتفاعل والتجديد، اللهم إذا استثنينا أصحاب العقول المريضة التي شوهت بسلوكها القيم الأصيلة للمبادئ والمثل العليا التي اشتملت عليها العقيدة الدينية. ولعل ما قامت به المقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان أو ما تقوم به المقاومة الوطنية الفلسطينية يؤكد مفهوم المقاومة العقائدية التي ترتبط بالقيم الوطنية والإنسانية؛ ولاسيما حين كشفت عن جرائم الجيش الصهيوني ومجازره الوحشية، ودحض آراء قادته... فقد أثبتت المقاومة الوطنية الفلسطينية واللبنانية البنية الهمجية لتكوُّن الدولة الصهيونية اللقيطة ـ الساعية إلى تكوين دولة يهودية عنصرية استئصالية متعصبة ـ تبنت فلسفة الحركة الصهيونية؛ وعلى رأسها فكرة الإرهاب الدولي، ومارسته عقيدة توراتية وسياسية منذ مطلع القرن العشرين، وقبل نكبة فلسطين (1948م) وبعدها... وإذا كانت الدولة الصهيونية أنشئت بقرار أممي من الأمم المتحدة واعترفت بها دول عدة فإن الصهاينة مارسوا ـ دائماً ـ التطرف الديني بمثل ما أتقنوا صناعة الموت والقتل واختراع الحروب والتدمير، والتهجير، وكانوا يشرّعون ذلك تحت مظلة التعاليم اليهودية علماً أن الكيان الصهيوني قائم على يهودية الدولة المحاربة... وهذا ما اعترف به (دافيد بن

غوريون) حين سئل: إلى متى ستبقى (إسرائيل) قائمة على الحروب والقتل؟ فأجاب: حتى تخسر أول حرب تقوم بها ... ونحن لسنا معنيين بما انتهى إليه مؤتمر (أنابوليس) في (27/ تشرين الثاني/ 2007م) حين طرح فيه (إيهود أولمرت) تبني يهودية الدولة وفق ما دعا إليه مؤسس الدولة الصهيونية (تيودور هرتزل)، فانتقلت صياغة الفكر الصهيوني من مبدأ إخفاء مفهوم (يهودية) الدولة إلى العلن؛ ما يشي بأن الأمر لم يعد مقتصراً على التطبيع أو الاعتراف بالكيان الصهيوني، وإنما نحن معنيون بما بات يُملى على العرب من الاعتراف بيهودية الدولة وعدم استنكار أي منهج تربوي للعدو أو الاعتراض على ممارسة التعليم الديني في التنشئة الصهيونية، على حين يُمنع على العرب أو المسلمين التمسك بعقائدهم أو الدفاع عن قضاياهم باسم الإسلام... ومن فعل ذلك اتهم بالإرهاب... وفي هذا الإطار ينبغي ألا يغيب عن بالنا الإشارة إلى وجود أحزاب دينية متطرفة في الكيان الصهيوني؛ ولها تأثير كبير مثل (المفدال: الحزب الديني القومي) وقد شارك في تأسيس هذا الكيان عام (1948م)، وهو مؤلف من عدة أحزاب[1]، وحركة (أغودات يسرائيل) وهي حركة سياسية دينية أسسها مجموعة من الأرثوذكس الجدد في فرانكفورت، ثم انتقلت[2] إلى فلسطين المحتلة إثر النكبة، وشاركت في حكومات عدة للكيان الصهيوني، وحزب (هتحيا) الذي يعد شديد التطرف، ويضم قوى علمية ودينية متطرفة[3]..

وهناك أحزاب دينية أخرى منتشرة داخل الأرض المحتلة وأشهرها حركة (شاس)، وكلها تؤكد قيام الكيان الصهيوني على أساس ديني وممارسة التنشئة العنصرية الدينية على المنهج الديني المتطرف[4]، على حين يحارب الغرب وأمريكا العرب والمسلمين بسبب المفاهيم الدينية التي نشؤوا عليها، إذ طفقوا يجبرونهم على تغيير مبادئهم ومناهجهم التربوية التي تبث مفاهيم الدفاع

---

(1) انظر الأحزاب الإسرائيلية – مصالح وعقائد 53 –63 – تأليف أحمد خدام السروجي – دمشق – ط1 – 2007م.
(2) انظر المرجع السابق 63 – 68.
(3) انظر المرجع السابق 69 – 72.
(4) انظر المرجع السابق 72 –91 وظاهرة الأدب الصهيوني 53 – 54 - محمد توفيق الصواف – اتحاد الكتاب العرب- سلسلة الكتاب الشهري – رقم 9 – 2007م.

عن الوطن على حين لا يجرؤ أحد أن يخاطب الصهاينة محتجاً على ما يفعلونه في تنشئة أطفالهم، علماً أنهم يربونهم على العنصرية وكراهية العرب وقتلهم. ولا شيء أدل على هذا مما كتبه (أفنير كرميلي) لأطفال الصهاينة: " العرب متخلفون ورعاع... العرب إرهابيون قتلة، يخطفون الأطفال، يغتصبون النساء، يتربصون بنا من كل جانب"[1].

ولعل المتابع للمناهج المدرسية للتربية الدينية بوصفها تربية وطنية وخلقية في تعليم الناشئة في البلاد العربية والإسلامية يدرك مدى العناية بالتسامح الديني والإنساني، والانفتاح على الآخر... على عكس التربية الصهيونية التي لا ترتبط بأي نمط ودي، بل تقوي سلوك العدوان والعنف لدى ناشئة الصهاينة ضد العرب. فإذا كان الأطفال رمز الطهر والنقاء فمن منا لا يذكر كيف حول الصهاينة أطفالهم إلى قطط متوحشة حين أرسلوا صواريخ الموت والدمار في حرب تموز (2006م) وكتبوا عليها باللغة الإنكليزية (هدية لأطفال لبنان: Agift to Lebanon children).

وهذا يعني أن الكيان الصهيوني يقف موقفاً عدائياً شديداً ضد المقاومة الوطنية العربية والإسلامية المؤسسة على العقيدة الدينية، لأنه مدرك أنها ستكون وبالاً عليه وعلى من يدعمه، ويقوم بدور أكثر خطورة وعنصرية حين يمعن هذا الكيان المجرم وحلفاؤه في إلباس المقاومة الإسلامية ثوب الطائفية أو المذهبية، لإصابة هدفين معاً: إثارة الفتنة من جهة والتمهيد للاعتراف بيهودية الدولة مستقبلاً من جهة أخرى.

ولذلك كله نريد للمقاومة أن تبنى على العقيدة الدينية السامية في التنشئة الوطنية المستندة إلى النضال الوطني ضد الاستعمار، فثقافتنا الدينية ثقافة وطنية نبيلة ضد العدوان، والاحتلال والقهر والتدمير و...؛ ثقافة ترتقي بالمقاتل إلى حالة المثال الأرحب في التضحية في سبيل الوطن وتحرير الوطن والإنسان لقوله تعالى: " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

---

[1] انظر المرجع السابق –180.

المعتدين" (سورة البقرة 190/2) أما ثقافة الكيان الصهيوني وأمريكا ـ تاريخياً ودينياً ـ فهي ثقافة استئصال واعتداء واحتلال وقتل وتدمير وتهجير مهما ألبساها ثياباً براقة، كالدعوة إلى الحرية والديمقراطية، أو الدعوة إلى شرق أوسط جديد تنتفي فيه العداوة والحروب ـ كما زعم قادتهما ـ ولعل ما جرى ويجري في العراق يؤكد إحياء النزعات الطائفية والمذهبية والعرقية والعشائرية وراح يشجعهم على سفك الدماء بينهم بعد أن أوقعهم في الفتنة الدموية، حتى سهل على المحتل الأمريكي وصم أولئك المقاومين بالإرهاب الأعمى وإدانتهم بنشر المذهبية والطائفية والعرقية...

وما نراه في هذا الإطار وفق ما يتضح لنا من بنية المقاومة الوطنية في فلسطين ولبنان والعراق والصومال أنها مقاومة شعبية ودينية في وقت واحد بكل مستوياتها وأشكالها من أجل مقاومة المخططات الأمريكية والصهيونية... وهذا ما يفرض علينا إعادة إحياء مشروع المقاومة الوطنية القومية وجعل العقيدة الدينية أساس التحرر النهائي من آثار المد الصهيوني والغربي... فالعقيدة الدينية تتسق في ذاتها مع قيم المجتمع الأخلاقية والمبادئ الإنسانية الشريفة ومع سعي الإنسان الوطني إلى إقامة الحياة المطمئنة المملوءة بالحيوية والعطاء، والمستندة إلى التوازن والتفاعل مع الآخر... وإن وجد في المؤسسات الدينية بعض المتطرفين الذين يزرعون الانغلاق في الدروب والنفوس، لأنهم يعانون جموداً في التفكير وضيقاً في الرؤية الدينية لجهلهم بطبيعة الإسلام المبني على القيم الأصيلة في ترسيخ مبادئ إعلان حقوق الإنسان[1]، وتذكيتها في عقول الناس ناشئة وكباراً...

ومن هنا نحن نتوجه إلى علماء الدين الأفذاذ والفقهاء العارفين كي يُواجهوا كل متصد للتعليم الديني أو الخطابة الدينية من دون أن يكون مؤهلاً... أي إن ممارسة الشعائر الدينية شيء وفقهها شيء آخر. لذلك قال

---

[1] انظر الحقوق والحريات العامة 9/1 – 11- وزارة الثقافة السورية – دمشق – 2005م.

الشيخ محمد الغزالي: " إن دين الله لا يقدر على حمله ولا حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية، الثرثارون في عالم الغيب، الخرسى في عالم الشهادة..." والجاهل بالدنيا والحضارة جاهل بكثير من معطياتها، مثل الجاهل في تربية ثقافة المقاومة، ما يؤدي إلى الإضرار بها وبأصحابها.

وفي ضوء ذلك كله نرى أن التدين بالعقيدة ـ أياً كان المذهب الذي يطبق فيه هذه العقيدة أو تلك ـ فضيلة وسعادة، أما التعصب للرأي والمذهب، والطائفة فهو الشر والرذيلة والإثم، بل إنه وثنية من نمط جديد... فالدين يطهر الأخلاق، ويهذب السلوك ويرتقي به ليفنى الفرد في الجماعة فإذا تحوّل هذا الدين إلى أداة تعصب وكراهية وقتل وتدمير للحياة أصبح شراً لا بد من مواجهته ومقاومته...

ويكفي أن ندلل على فقه المقاومة الدينية في لبنان وفلسطين ما ربته في مناضليها من توازن بين العقيدة وبين التضحية والفداء في سبيل الله والوطن. ويؤيد هذا كله أسماء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل كرامة الإنسان ـ " ولقد كرمنا بني آدم" (سورة الإسراء 70/17) في أرضه ووطنه في الوقت الذي يبتغون من شهادتهم وجه الله لقوله تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون"(آل عمران 169/3)، إنهم يدفعون أذى شذاذ الآفاق الذين جاؤوا من وراء البحار ليحتلوا ديار العرب والإسلام...

ولهذا كله فهناك عملية تشويه عظيمة تلحق ثقافة المقاومة، ولاسيما ثقافة التربية الدينية للعربي والمسلم اللذين يتعرضان لضغوطات سياسية ونفسية وفكرية وتربوية بغية تغيير المفاهيم التي تربيا عليها منذ وجود الثقافة العربية الإسلامية والتي ركزت على مقاومة العنف والقتل والفساد والسوء والانحراف... من دون أن يغيب عن بالنا أن سمة الفكر الديني الإسلامي هي قبول الآخر واحترامه أياً كانت عقيدته ـ "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سورة سبأ 24/34) بعكس ما نراه عند الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني الذي يصر على السيطرة وتبديل مفاهيم العرب والمسلمين لحسابه، وعلينا ألا نغفل عن ذلك والعالم يتطور من حال إلى حال....

ومن يرجع إلى أحداث الحادي عشر من أيلول (2001م) يدرك أن بوش

الابن لم يخجل أو يتردد في أن يعلن صراحة بأنه يقود حرباً مقدسة صليبية؛ ويرى أنها حرب ينوب فيها عن الإله؛ إنها حرب الملائكة ضد الشياطين؛ وحرب الدول المتحضرة في مواجهة الدول الشريرة، وحرب الديمقراطية ضد الإرهاب...[1]

تلك مقولات دينية كثيرة حملتها حرب بوش على الإنسانية، فبوش قسم العالم إلى معسكرين؛ معسكر للخير والملائكة والأخيار ووضع نفسه وإدارته ودولته ومن ينضم إليه في هذا المعسكر، ومعسكر آخر للشر والشياطين، ثم أعلن من ليس معنا فهو ضدنا.

ولو افترضنا صحة ما ذهب إليه فإن المرء ليتساءل عنه وعن معسكره من الملائكة والأخيار: لماذا شنوا حربهم الظالمة على العراق؛ وارتكبوا فيه جرائمهم البشعة، فضلاً عن أنهم قتلوا مليون طفل عراقي في حصار جائر على العراق؛ منع عنه الدواء والغذاء، وقد شاركته الأمم المتحدة ـ على نحو ما؟ وهذا يؤكد تعطشهم لسفك دم العربي والمسلم. فهم لم يكتفوا ـ قبل ذلك ـ بحربهم الفتاكة التي شنوها على أفغانستان ودمروا الحياة، والأوابد التاريخية، وسرقوا ثروات البلاد والعباد وإنما قاموا بجرائم متتابعة في العراق وليبيا والسودان.. إنها الجريمة الوحشية التي تنفذ باسم الحرية وإشاعة الديمقراطية... إنها الإله الجديد الذي اتخذوه ذريعة لغزو الدول وسرقة مواردها. وكان اليهود قد اتخذوا منهج الإرهاب والتدمير أسلوب حياة لهم وسوغوه بأنه مستمد من إرادة الإله... فهل الإله ـ إن لم يكن يهودياً أو أمريكياً ـ يرغب في ذلك؟

ثم أي حرية هذه التي يتحدث عنها الأمريكي؟!؛ أهي تلك التي تساند قتل الأبرياء في العراق وأفغانستان والصومال ولبنان أم تلك المساندة للدولة الصهيونية الوالغة في دم الشعب الفلسطيني، وتهجيره، واقتلاعه من أرضه

---

[1] انظر الديمقراطية والإسلام 165 – 179 – سليم قندلفت – أرواد للطباعة والنشر – طرطوس – سورية – 1996م، وراجع كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين 156 – 168 و 182 – 210 – دار الفرقد – دمشق – 2006م وأمريكا (العقلية المسلحة) – 18 – 20، والجيل الثالث: نهج المقاومة – 213 – 215..

وجلب المستوطنين الصهاينة إليها؟!

إن ما يدعو إلى الاستهجان والاستغراب أن الإدارة الأمريكية لا تزال تستعمل ـ أيضاً ـ حق الفيتو ضد إدانة الدولة الصهيونية اللقيطة التي تمارس أبشع أنواع الإرهاب الدولي بحق الشعب الفلسطيني الأعزل الذي لا يملك إلا إيمانه بوجوده ودفاعه عن حق الحياة... ولكنا يذكر المجازر المنظمة لهذه الدولة المسخ منذ مذبحة دير ياسين وكفر قاسم إلى جنين ومذابح غزة. وعلى الرغم من ذلك سارع كثير من الأنظمة العربية إلى تبني مفاهيم بوش في حربه المقدسة وفي إطار ما زعمه عن تبني الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة، فطفقت تحذف من برامجها التعليمية والدينية والتربوية والخلقية كل ما يمت إلى مفهوم الجهاد بصلة، وكأنها أقرت بما يصفها به بوش من أن الثقافة العربية الإسلامية لا تربي العربي والمسلم إلا على الإرهاب...

إن حكاية بعض الأنظمة مع عقيدتنا الدينية السمحة أغرب من الخيال؛ إذ لا يجوز لنا أن ننشئ أطفالنا على حب الوطن والأمة وتراثهما وعقيدتهما... وبث روح الحماسة والتضحية في نفوسهم للدفاع عن ذلك، بل للدفاع عن الوجود الإنساني الحر... علماً أن عقيدتنا وتراثنا وثقافتنا لا تُعلِّم هؤلاء الناشئة تغذية العداوة للآخر كما يفعل الآخر الصهيوني، إنها تربّي فيهم مفهوم الحب الإنساني، وتدعوهم إلى التماس طريق الهداية للضال بالدعوة الحسنة وفقاً للحديث الشريف: ((لئن يهد الله بك رجلاً خير من الدنيا وما فيها)) وفي رواية أخرى ((خير من حمر النعم)). فالجهاد الذي فُرض في عقيدتنا جهاد من أجل حماية الكرامة[1]. وتراثنا كله قائم على الحب للآخر، والتماس طريق المعرفة والحوار في حل المشكلات التي تنشأ بيننا وبينه، وإذا كان لا بد من القتال فهو في حالة واحدة للدفاع عن النفس والوجود.

وإذا كان الكيان الصهيوني مدعوماً بالإدارة الأمريكية المتصهينة والغرب المعادي للإسلام، كما ظهر أخيراً في الدانمرك بحجة ممارسة (حرية التعبير) إذ أعلنت الصحف الدانمركية يوم (2008/2/12م) تضامناً كاملاً مع صحيفة (يولاندس بوستن) والرسامين الذين رسموا رسومات حاقدة تنال من

---

[1] راجع ما تقدم 41 وما بعدها

الرسول الكريم، ونشرت جميعها تلك الرسوم إمعاناً من أصحابها ـ كما زعموا ـ في الدفاع عن (حرية التعبير) و(الديمقراطية)[1]... نقول: إذا كان ذلك كذلك فإن الغرب المتصهين قد اعتمد مبدأ القتل المتعمد للإسلام والمسلمين وفي صميم ممارسة الإرهاب الفكري والإعلامي نفسه. إذاً؛ أغلب ما تمارسه الإدارات الأمريكية المتعاقبة والصهيونية المارقة بحق الإسلام والمسلمين إرهاب موصوف مسبقاً، وفضلاً عن ذلك فكل إنسان يتعرض للسامية ويفند أكاذيبها وافتراءات الصهاينة في طبيعتها سيواجه بشدة وحزم وربما يباح دمه...

وفي ضوء ذلك كله فإن الوطن العربي يعيش حالة خطرة في مواجهة التربية الدينية المنحرفة للغرب وللكيان الصهيوني، ولاسيما حين فرض كل منهما على المسؤولين التربويين العرب تغيير المناهج الدينية والثقافية التي تربي الناشئة على قتال المحتل ومقاومته...

ومهما قيل في شأن المقاومة والتربية الدينية فإن هذه التربية ضرورة لخلق الإيمان بالوطن والتضحية في سبيله عن دراية وعلم ومعرفة السلاح ومعرفة العدو. ومن ثم علينا أن نعرف ماذا نملك؟ وما الذي يملكه العدو؟ وما الذي يخططه؟ ومتى سيبدأ الحرب؟ و... ولعل ما قدمته المقاومة الوطنية الإسلامية يعزز ذلك كله كما يعزز مبدأ تغذية الصبر والصمود عن طريق التثبت بمفاهيم العقيدة مثل (الإيمان بالقدر الإلهي) لقوله تعالى: " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين"(سورة الأنفال 65/8) وقوله تعالى: " إن ينصركم الله فلا غالب لكم"(سورة آل عمران 160/3).

ـ أما اللطف الإلهي بأسر الجنديين فقد تجلى بقوله تعالى: " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله"(سورة الإنسان 30/76) وقوله : " وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم..." (سورة الأنفال 7/8).

ـ وأما انكشاف الجيش الصهيوني أمام أبطال وهبوا أرواحهم لله فإنه تأكد حين نصرهم الله وشفى قلوبهم مصداقاً لقوله تعالى " "فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذَّكَّرون... ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا

---

[1] انظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين 182 – 210 و227 – 231).

إنهم لا يعجزون" (سورة الأنفال 57/8 و 59) وقوله تعالى: " ولا تهِنُوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً" (سورة النساء 104/4).

ونرى أن تقرير فينوغراد أقر بهزيمة الجيش الصهيوني؛ وفق ما ثار حوله من انتقادات شديدة في الداخل الصهيوني... ما يعني أن الفكر الصهيوني اليهودي قد بدأ يتدهور، ومن ثم بدأت نظرية يهودية الدولة التي أطلقها (تيودور هرتزل) تتكشف عن نزوع عرقي ديني معادٍ للبشرية، ولّما كانت كذلك كان لا بد لها من الهزيمة...

فالتربية الإسلامية المقاومة لم تكن في يوم ما اعتداء على الآخر الصهيوني ولا عصبية منها ضد أي أحد، وإنما هي وسيلة للتحرر من قهره وظلمه؛ وللحفاظ على المروءة العربية التي أهينت تحت صَلَف الغطرسة الصهيونية المتوحشة في نكبة (1948م) وهزيمة (1967م)[1]... ومن ثم حين نعيد استثمار التربية الدينية الوطنية وإعداد المقاتلين المؤمنين ـ في ضوء خطة تربوية ثقافية واضحة الأهداف والمناهج ـ إنما نؤسس تربية نضالية سياسية تؤكد مكانة الذات الوطنية الإنسانية وتثبت جوهر الهوية العربية الأخلاقي، وتضع الجماهير العربية في الموقع المطلوب وتعزز جملة من الأنماط السلوكية التي تدفع المرء إلى الابتعاد عن العنف للعنف وإيذاء البشر، وعن العدوان الذي ينال من الإنسان، لأنه محرم شرعاً؛ ومرذول خلقاً... ولا يؤدي بالناس إلا إلى الشقاء... والتعاسة... ما يعني أن جوهر التربية الدينية الإسلامية ينضوي على قبول الآخر، والتفاعل معه، والتسامح عما اقترفه من ذنوب وآثام بحق المسلم لقوله تعالى: "... ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين" (سورة المائدة 13/5).

وهو ـ بهذا المحتوى ـ تحدّ صارخ لكل الأنظمة العربية الحاكمة التي أجهضت بخلافاتها كل أمل بالوحدة العربية والتقدم والازدهار، فكانت أشد إيذاء للحلم العربي من المستعمرين الطامعين بها... علينا أن نعيد إلى الأمة

---

[1] راجع ما تقدم 219 وما بعدها.

العربيـة وجههـا المشـرق الـذي ظهـر في تشـرين (1973) وانتفاضـة (1987م) و(2000م) وانتصار أيار (2000/5/25م) وتموز (2006م) وأن نبصِّر أبناءها بـدور بعـض الحكـام في تفكيـك اللحمـة الوطنيـة والقوميـة، وبـدور الكيـان الصهيوني في النظـام الكـوني الجديـد وفـق مـا هـو معـروف عـن نظـام (الشـرق الأوسـط الجديـد)، مـا يفـرض علينـا أن نـتخلص مـن الإعـلام المـأزوم والمهـزوم والعاجز عن رؤية حقيقة القيم الدينية... وأن نوجد إعلاماً متطوراً يتصف بكل التقنيات الحديثة والأساليب المتقدمة والكفاءات العالية، وأن نمضي في تطوير تربية الناشئة وفق الالتزام بالقضايا الوطنية والقومية التي تؤكد الذات دون أن تنفـي الآخـر؛ في آن معـاً وأن نسـتلهم مخاطبـة الـذوق والوجـدان والعقـل بأسـلوب حضاري راقٍ.

فالثقافـة الوطنيـة والتربيـة الدينيـة المقاومـة يقويـان الميـل في النـفس العربيـة لدراسة الواقع العربي والعالمي؛ لاستيعاب الدروس الكثيرة منه؛ ولا سيما تلك التربيـة الـتي تقـاوم كـل أشـكال اليـأس والإحبـاط، والتمزيـق والتضـليل الـتي مورست من أجل تشويه مفهوم الانتماء وجوهره الحقيقي وهدف الدين الصحيح ومبادئـه الخلقيـة... فجدليـة التربيـة المقاومـة تعـني حتميـة التفاعـل بـين الإنسـان ووطنه وأمته وتنمية الارتباط بهما، ومن ثم تعزيز قدرته على التعامل مع الوسط الكـوني الـذي يعـيش فيـه بمـا ترسـخه التربيـة مـن حقـوق الإنسـان الـتي تواضـع عليها المجتمع الإنساني.. لهذا يصبح الدفاع عن الوطن دفاعاً إنسانياً مشروعاً يقوي التلاحم بين الإنسان والآخر على أساس الاحترام والمساواة والتكامل، لا على أساس التغليب أو التغييب، والإلغاء أو الإقصاء.

وعليه فإن فكـرة اللاانتمـاء إلى وطـن مـا؛ وأمـة مـا، وثقافـة مـا، هـي الـتي ستفجر الصراعات القاتلة؛ لأنها تريد أن تلغي خاصية التنوع والاختلاف، وهـي صفة أصيلة جُبل الناس عليها...

وليس لدينا شك في أن هذا التنوع والاختلاف هو الذي يميز ذاتية فردية من ذاتية فردية أخرى بسمات ما في كينونتها وسيرورتها وثقافتها... على حين تريد

الأمركة في إطار نظام العولمة الجديد[1] أن تفرض أحاديتها على خلق الله جميعاً أفراداً وجماعات؛ ما يؤكد أن الأمركة مصابة بمرض الانفصام؛ فهي من جهة تحاول أن تبرز الحرية الشخصية للإنسان ومن جهة أخرى تريد أن تلغي شخصية الأمم والأوطان والشعوب...

إن دعوى فصل الذات الفردية عن الانتماء إلى وطن وهوية وأمة في مفهوم الأمركة تحت دعاوى الحرية الشخصية إنما هو افتراء وكذب وتدجيل، ولاسيما أن مبدأ الديمقراطية في القرار الأمريكي ينصهر في إطار المركزية النهائية لقيادة العالم ما يعني صناعة أعتى أنماط الاستبداد والقهر والديكتاتورية... ومن ثم فأي إنسان غير منتم لا يمكنه أن يحدد ما يريد بشكل متوازن وجيد، لأنه تابع بالضرورة لأفكار شتى مشتتة، وليست له أهداف ثابتة ومحددة.

وبناءً على ما تقدم فإن مسؤولية المؤسسات التربوية والعلمية والثقافية والاجتماعية والدينية والإعلامية لاتقل تأثيراً عن مسؤولية المؤسسات السياسية القيادية في إعداد أجيال مؤمنة بهويتها وتراثها؛ واعيةٍ لكل ما يحيط بها، عاملة على رفع كفاءتها وقدراتها في كل شؤونها الحضارية والعلمية... فأي تطوير إداري أو علمي أو تقني أو ... لمعهد من معاهدنا، أو مؤسسة من مؤسساتنا ينبغي أن ينص على رؤية وطنية ـ قومية واضحة ودقيقة، وعلمية تنسجم مع مفهوم المقاومة وتربية النشئ تربية دينية في إطار من التوازن والتفاعل والتكامل، وألا تكون تلك الرؤية ملحقة أو تابعة أو مستنسخة، أو متخلفة، أو عاجزة، أو منحرفة أو قاصرة... فالتربية المقاومة هي التي تخلق الإنسان السوي القادر على الاستجابة الفطرية والعقلية لمتطلبات التنمية في أي شأن من شؤون الحياة، ومن ثم فإنها تربية لا تقتصر على الجانب التخصصي لأي نظام تربوي وثقافي ... وإنما تدخل في صميم احتياجات الوطن والأمة وتطويرها في خدمة الأهداف الكبرى لتحقيق الكرامة الإنسانية... وكذلك

[1] انظر: كتاب العولمة بين الاختبار والاختيار – مركز الدراسات الاستراتيجية – دمشق 2005م – ص 23 –35.

هي تربية لا تقتصر على مجرد مقاومة المعتدي الخارجي بالقوة المادية وإنما تستند إلى برامج ومناهج وأساليب تقاوم كل انحراف أو فساد ... ينشأ في داخل الوطن على الصعيد الفردي والجماعي... فالتنشئة الوطنية المقاومة تخلق في الأجيال الكفاءة والقدرة والحرية، والتناسب والانسجام بين ما هو داخلي وما هو خارجي وفق القيم الأصيلة والإنسانية... وهي في ذلك كله تسعى إلى رفعة الوطن والأمة وصيانة وحدتهما وسيادتهما على اعتبار أن التكامل بين الذات الفردية والذات الجمعية قد أضحى ضرورة وجود، وأن أي اعتداء على أحدهما اعتداء على الآخر، وكذلك فإن الانتقاص من أحدهما هو انتقاص من الآخر.

هكذا كان هذا الفصل خاتمة موضوعية للفصول التي تقدمته بوصفه يجسد ذروة مفهوم المقاومة في آفاقها الوطنية المتجددة، فالتربية المقاومة للناشئة والأجيال بكل شرائحها ردٌّ طبيعي على نزوع الشر الذي عشش في رؤوس الطامعين باحتلال أوطاننا وسرقة خيراتها والإجهاض على ثقافتها وتراثها وقيمها و...

وهذا كله ينقلنا إلى الخاتمة التي ضمت أبرز نتائج البحث...

obeikandl.com